أيقونة الروح

د . لينا راضي صبح

(الطبعة الأولى) 2025
دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

رواية

أيقونة الروح

تأليف

د . لينا راضي صبح

(الطبعة الأولى)

2025

رقم الإيداع
الترقيم الدولي
رئيس مجلس الإدارة / احمد عبد السميع

دار الفراعنة للنشر والتوزيع والترجمة

لا يُسمح بإعادة طبع أو نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه في أي نظام إلكتروني أو ترجمته إلى أية لغة دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر وإلا تعرض فاعله للمسائلة القانونية.

الإهـــــداء

بعض المشاعر تُختصر، إلا تلك التي تنتمي لهذا الوطن الرائع، حيث تنبض الأرض بالمحبة، ويزهو أهلها بوجوه تشع خيرًا، في مشهد يتجلى فيه التوازن الإنساني بأبهى صوره.

الإمارات... حيث القلب يميل إلى المحبة، والعقل يسمو في فضاءات المعرفة، فتنساب الروح نحو ثقافتها، بين دروب الأمن والسلام.
هنا، حيث تسحرك أروقتها، وتأسرك مواقفها الإنسانية، فتجد نفسك مدفوعًا نحو أسمى الطموحات، في وطنٍ عانق الفضاء، وارتفعت سماؤه بالعدل والمساواة.

أيقونة الروح

إهداء إلى أيقونة العلم والأخلاق سمو الشيخ
سلطان بن محمد القاسمي حفظه الله

ماأنت إلا ملاك طاهرٌ ورعٌ
ينزاح ليلٌ إذا مالحتَ مُتقدا

هنا، حيث تجسّد العشق مدادًا، وامتزجت الحروف بروح المكان، ولدت روايتي بين ربوع إمارةٍ تحمل بين جنباتها سحرًا لا يختصره سوى قولهم: ومن الحب ما قتل.

إنها عاصمة الثقافة، التي أزهرت بنور رجلٍ نذر نفسه للعلم والأخلاق، فكان رمزًا يُشار إليه بالبنان: سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي.

على جبينه الناصع، تختال العربية بحروفها الدُّرية، وتزهو به الأخلاق ابنًا بارًا، وتعانقه الثقافة شقيقًا في الفكر، أما الإنسانية، فتقرُّ أنهما يشتركان في قلبٍ واحد

تتوارى القوافي خجلًا كلما حاولت أن أروي نهم الحرف بخشوع التعبير عنك، فتبتسم أوراقي، لكن قلمي ينكسر في مرآة ذاتي، عاجزًا عن الإحاطة بثنائك. فاسمك لا يُكتب، بل يُرفع دعاءً على شفاه تلك الوجوه الضاحكة المستبشرة، التي تجوب شوارع عاصمة الثقافة بملامح هادئة ورؤوس مرفوعة إلى السماء.

بقدر ما تهب هذه الإمارة من قلبك، تارة بعاطفتك وأخرى بحكمتك، بقدر ما تغمرنا بسعادتها المطلقة، فنرتب الحكايات الدافئة من جديد، ليكون بطلها حديثك الأبوي، ذلك الذي يعيد إلينا أحلامنا العلمية، ويمنحها مكانًا رحبًا في فلسفة الواقع. كيف لا، وفكرك خليل المعرفة، وحديثك طبيب الثقافة، ومبادئك عكاز الطموح؟

كعبق الذاكرة حين يفوح، كدفء يعود شريدًا بعد موجة صقيع، نعود إليك بشموخ الروح، نغرف من مجرة إلهامك، ونتدثر بأخلاقك، ونستنير بإيمانك، ونستلهم من ترانيم علمك كيف يولد السلام من جذور النخيل، وكيف تُضاء الشارقة بحديث كهلٍ وعيون وليد.

حملتُ في داخلي شظايا الفقد يوم رحل والدي، لكنني وجدتُ في هذه الإمارة ترياقًا لوجعي، وفي سمو شيخها الجليل سلطان بن محمد القاسمي نُبل والدٍ احتضنني بفكره وقلبه.

د.لينا راضي صبح

الإهـــــداء

إلى من علّمني كيف أكون...

سلامٌ إلى روحك الطاهرة، يا أبي الحنون،
لا يزال صوتك يتردد في أعماقي، وكأن رحيلك كان بالأمس،
وما زال طيفك ماثلًا أمام ناظري، في كل منصةٍ من منصات العلم،

طالبي المتميز طارق، لروحك النقية أبعث الفخر والدعاء.

إلى نواة القوة، وصوان الصبر، والمرأة المثالية...
أمي الحبيبة،
وإلى من يحملن في أرواحهن عبق والدي،
أخواتي الغاليات،
أهديكن كل الحب، فأنتم هبة من الله "فأنتم" وصية والدي

أيقونة الروح

الفصل الأول
ابنة الفيلسوف

لم تكن يومًا كغيرها، فالاستثناء كان رفيق دربها، يضيء ظمأها اللامحدود للمعرفة، لكن الكارثة الكبرى تكمن في الطموح... ذلك التحدي الأبدي بينها وبينه. في هذه المساحة المتشابكة، حيث يتصارع الشغف مع الاكتفاء، ندعوك إلى رحلة عشقٍ ممتزجةٍ بثقافة الفكر، حيث يُسقى الحب بعسل المعرفة، ويتربع مفتاح الروح لسنواتٍ على حافة طاولتها، فوق كتبها، منتظرًا من يعبر إليها حاملًا في عقله ألف ليلةٍ من الإبداع، وفي قلبه هي وحدها، ليكتمل بها وتكتمل به، فتتوازن لغة العشق النبيل على جبهة حياةٍ وردية.

تمهّل، عزيزي القارئ، فلا حاجة للبحث في ماهية قناعاتها، بل انظر كيف ينعكس نورك في بريق الحبر الذي خُط بجزءٍ من صدى حبها، وتأمل كيف امتزج هذا الخيال بترف عبقرية قلمه. إنها الأحجية التي قد تتحول إلى إعصار بأثواب تقية، وهي اللغز الذي يترنح بين العشق والمعرفة، فتجدها حينًا سرًا غامضًا، وحينًا آخر ضوءًا لا ينطفئ.

والعذر كل العذر للغة، إن عجزت عن الإحاطة بها، فلو اختبرت ما اختبرته من فرط العشق وشغف المعرفة، لما تاه الكلام بين عيناه وعبقرية. وها هنا، يا قارئ هذه السطور، تكمن عظمة تلك القضية.

إلى من يروي ظمأ الفكر، ويشعل قناديل الطموح...

من قال إن الفكر يعرف الاكتفاء؟ من لم يذق ديمومة الجوع للمعرفة، فلن يدرك نشوة الشبع على ضفافها.

أما عنها، أيها القارئ، فهي الفتاة التي تحبو فوق الغيم، تشعل أنوار الطموح، وتنهل من ينابيع العلم التي لا تنضب. وُلدت من جوهر المحبة الصادقة، وتربّت على مدارج الفكر حتى ارتوت بمصل الأنا في متاهات المعرفة ومعتقل العقل. هي ابنة رجلٍ أمطرها بالصداقة قبل الأبوة، بالحكمة قبل الأخوة، فكبرت بين عناقيد الاحتواء، متشبعة بلغة نضجت على راحتيه، حتى غدت تحمد الإله بالأكرم لا بالكريم، إذ أشرق ضياء الآيات في محطات ذاكرتها المغمورة برائحة الكتب، والمدثرة بجموح الطموحات.

تناسَت الحب تارة، وبحثت عنه تارات، في ظلال الإسقاطات العلمية، ونرجسية الحوارات الثقافية، عن نصفٍ آخر يملأ فراغات الغياب خلف مشارف المجد المكتمل من رحيق المعرفة ورُقيّ الرجولة. كم راق لها الصمت على أطراف العلم، تواعد النصف الآخر على أوراقٍ أبت إلا أن يستنطق الفضول آخر حروفها، علّها ترسم بين البنفسج ملامحه بخيالٍ يستجدي نهاية المطاف. لكنها أدركت أخيرًا، أن الحب الأسمى لا يُطلب، بل يهرول نحوك حين تكف عن البحث عنه، حين تكون مفاتيح رموزه منقوشة على أغلفة الكتب.

يالغرابة التناقضات في فكر امرأةٍ، تختال بأجنحتها الفكرية كفراشةٍ تحطّ على أنقى رحيق، ابنةٌ لفيلسوفٍ حكيمٍ، علّمها كيف تستمطر ضمائر المعرفة، حين تغيب الإنسانية بين أيدي العابثين بالمستقبل.

أيقونة
الروح

إلى من يقرأني الآن، إلى من يعرف أن العبقرية ليست امتيازًا بل محنة، وأن الطموح لا يكفي إن لم يكن مجبولًا بالكفاح...

يمضي الآخرون على قارعة أهوائهم، يطاردون طموحاتٍ بلا بوصلة، يحسبون أن المجد يُشترى، ولا يدركون أن الثمن قد يكون الروح ذاتها. أما هي، فلم تكن يومًا من العابرين، بل كانت من أولئك الذين يصنعون الطريق، من الذين يتنفسون الفكر لا لمجرد النجاة، بل لأنهم لا يعرفون سواه.

خلف ستائر الماضي، في مقاعد الدراسة الأولى، كانت هناك طفلة تراقبه بصمت، بذهول لا يفهمه إلا من عرف ما تعنيه العبقرية حين تتجسد في شخص. "مسك" كان اسمها، والدهشة كانت رفيقتها، تقف على عتبة الإدراك كلما أجاب إجابةً لم تخطر ببال، كلما أدهش معلمتهم التي كانت تحاول، بعين الضمير، أن تجمع تفاوت العقول في قبضة واحدة. لكن عقله كان يسبقهم جميعًا، وكان المختلف بينهم، وكان المختلف لها.

كم جال في صمتها التمني حينما كبرت تسمية روايتها عيناه وعبقرية لكنها خافت أن تضع القارئ على أسوار معلقة يستجدي فيها طوق النجاة

كبرت، وظلت الطفولة تسكنها، الطفولة التي لم تعرف فيها سوى الحنان المغمس بلمسات أبيها، وعطر أمها، ودعاء جدتها، وقبلة على جبين جدها الذي كان ينتظر عودتها بعد كل امتحان، يتغنى بدرجاتها كأنها نبوءة. الطفولة التي جعلت المستقبل يبدو كأنه وُضِع في راحة يدها، والتميز كأنه خُلِق لها وحدها.

لكن الزمن لم يكن رفيقًا لطيفًا، بل كان نِدًّا ا عنيدًا، وكانت أحلامها أكبر من أن يحتملها الوقت. في سباقها معه، كانت الخسائر كثيرة، والانتصارات قليلة، لكنها كانت تعرف أن من يركض خلف الحلم لا يملك رفاهية التوقف. كانت تحارب عقارب الساعة بألوان زاهية، تنثرها كل صباح على مدرجات الجامعة، ترسم خيالاتها كما لو أن الحياة ستمنحها كل ما تريده، وكأنها لم تدرك بعد أن بعض الأحلام لا يكفيها الوقت، بل تحتاج عمرًا كاملًا من الإصرار.

هكذا مضت الأيام...

على مقاعد المدرسة الابتدائية، حيث كانت الطفولة تحتجز الكون خلف ستائر الحاضر، منتظرة لقاءً مجهولًا مع المستقبل. كانت ترسم أحلامها على جدران الصفوف، دون أن تدرك أن بعض الأحلام قد تولد محاصرة، مغلولة اليدين بسلاسل لا مرئية من الجهل والحسد.

أما هو، فقد كان طفلًا يتنفس العبقرية، لكن ذكاءه لم يكن امتيازًا، بل حكمًا بالسجن في زنزانة لا يدري ما الجريمة التي أدخلته إليها! كيف لعقل لامع أن يجد نفسه متهمًا فقط لأنه يسبق أقرانه؟ كيف للعبقرية أن ترسو على ميناء الطفولة بينما العبثيون يلقون عليها أحقادهم؟ وكيف لها أن تُنفى بعيدًا، فقط لأنها تجرؤ على العبث في دهاليز العقول الأخرى، لتعيد تشكيل المعرفة بلون جديد، دون أن تحتاج إلى مداد أو دواة؟

كانت تراقبه بصمت، مأخوذة بلون عينيه، كأنهما مرآة لحكاية لم تُكتب بعد. كان ألمه واضحًا، كان الظلم يحط به من كل جانب، كأن العالم يقول له بوضوح: "المكان الذي خُلقتَ له ليس لك!" كان مجرد ضيفٍ في ساحةٍ يُفترض أنها ملكه، بينما من يتغنون بالعلم يقفون على أسوار عبقريته عابرين.

"ليس بالضرورة أن تكون الجريمة قتلًا بالمعنى الحرفي... هناك قتل الروح، قتل الطموح، قتل الأمل، قتل الحب. أي جريمة أفظع من أن تنتزع من طفل أحلامه؟"

هكذا كتب في مذكراته، هكذا عرّى الحقيقة. لم يكونوا يحاربونه، بل يحاربون ما يمثله، يحاولون قتل شغفه، اغتيال نضجه المبكر، ليزرعوا في قلبه كرهًا لما كان يجب أن يكون أجمل مراحل حياته. لكنه لم يفهم: لماذا؟

تساؤلات كثيرة كانت تجعله حائرًا، معاناة تراكمت حتى صارت جدارًا بينه وبين طفولته. أيحق له الغضب؟ الانتقام؟ أم عليه أن يتمسك برغبة الحرية، بالمجازفة، بالحماس والإثارة؟ لكنه كان يعلم أن هذا لن يجلب له الأمان، بل سيزيد من غربته. الأصعب من كل ما عاناه لم يكن الظلم نفسه، بل تراكم تلك المشاعر التي لم يستطع تجاوزها إلا بعد أن نضج، بعد أن أدرك أن بعض الجراح لا تُشفى، بل تصبح جزءًا من الروح.

أما هي، فقد غابت عنه لثلاث سنوات، سافرت مع عائلتها، وحين عادت، لم تكن تعلم ماذا حدث في غيابها، ولا كيف تغيرت الملامح على تلك المقاعد التي كانت تعرفها جيدًا. لكنها كانت تشعر أن شيئًا ما قد انكسر،

هكذا كانت تؤمن...

لم يشغلها قط أن تعود يومًا لتسأل: من حلّ محلها؟ من استحق الامتياز؟ ومن ملأ ذلك الفراغ بابتسامة لم تكن تعني سوى راحة من رحيلها؟ لم تكن بحاجة إلى إجابة. فقد كانت تعرف ملامحهم جيدًا، تحفظ تفاصيل الحقد في أعينهم، ذلك الحقد الذي لم يكن يثير فيها سوى الشفقة، لا الحزن.

كانت تتساءل دومًا: لماذا يعجزون عن الاعتراف بنجاح الآخرين، بينما هم من اختاروا مرافقة الفشل؟ المعرفة لم تكن يومًا حكرًا على أحد، والمقاعد اتسعت للجميع، لكن العقول وحدها من قررت مصيرها. هناك من أدرك أن الزمن لا ينتظر، أن الفكر لا يساوم، أن التميز ليس منحة بل معركة، وأن القمم لا تقبل سوى من يتسلقها بعزيمة لا تلتفت للخلف.

"التنافس الحقيقي لا يكون إلا مع الذات"

هكذا عاشت، وهكذا آمنت. لم تخلق لتكون كما يشاء الآخرون، بل كما تريد هي. عرفت أن التعامل مع البشر ضرورة لا مفر منها، لكن بحدود تحفظ لها فكرها، وتصون مبادئها، دون أن تفرط في ذاتها إرضاءً لأحد. لم يكن الكم يعنيها، بل النوع، فالعلاقات التي لا تضيف إلى روحها إبداعًا، والتي لا تلهم فكرها، ليست سوى ضجيج عابر في طريقها نحو الأفق.

ها هي اليوم، وسط هدوء ينسج شغفًا لا ينتهي، تتابع مسيرتها العلمية، تتسابق مع الزمن لإشباع ذاتها الفكرية بالمزيد، ولتحقيق أمانيها البحثية، حتى وإن بدا ذلك فوق المستطاع. كانت تنتظر عودة والدها، متلهفة للحظة التي يفتح فيها باب المنزل، فتسارع إليه بحوار تستجدي فيه رأيه الحكيم، ذلك الرأي الذي لم ترَه يومًا مجرد وجهة نظر، بل مسلمات ثابتة، قداسة حتمية لا يشوبها الشك، مهما مرّ عليها الزمن.

ألم يكن الأب الفيلسوف الذي رأت فيه كل قناديل الفكر المضيئة؟ كان حديثهما يمتد بلا نهاية، يتفرع من فكرة إلى أخرى، فيمر الوقت دون أن يشعر أي منهما، لولا صوت أمها الذي يشق سكون اللحظة، قاطعًا اندماجهما:

- كفى نقاشًا الآن، العشاء جاهز!

تبادلت مع والدها نظرة سريعة، ابتسامة خفيفة تفهم معناها جيدًا، ثم قالت بنبرة مازحة:

- يبدو أن الفلسفة تؤجل حين يحين وقت الطعام!

ضحك والدها بخفة، وقال وهو ينهض:

- الفلاسفة أنفسهم لم يستطيعوا مقاومة جاذبية المائدة!

كم كانت تتمتم على الوقت الذي يمر سريعًا دون أن يأبه أنها لازالت بحاجة للمزيد لتعود إلى طاولتها الدراسية حاملة وصايا والدها التي تحمل في طياتها عطاءًا لاحدود له يحمل مزيجًا من الحب والفخر تلك الكلمات التي لايزال صداها عابقًا في كل جزء من كل ثانية تجرها عقارب الساعة ، كم قال لها والدها أن للطموح حدود كي لايجرفها إلى سماء لا تستطيع إليها الوصول ولاحتى التحليق بين غيومها كم حدثها عن الكثيرمن الضحايا التي عشقتَهُ أكثر من ذاتها فماتت الذات وبقي هو يحلق في فضاء لاحدود له لطالما أوصاها بنفسها ولكنها كانت ترى في وصاياه جوعًا أكثر للعلم وفقرًا أكثر في المعرفة كان يشعر بما يدور في داخلها من صراعات تريد سباق الزمن تارة وأخرى تريد المكوث على أبوابه متيقنًا أن الفوز من نصيبها وعابرًا بالخوف صمتًا ومحدقًا في عيناها وكأنه يقول ليحفظكِ الله يا ابنتي.

لم يتغير شيء طيلة هذه السنوات، سوى أنها كانت تطلب من والدها المزيد من الكتب، رغم أن المنهاج المدرسي لم يكن يسمح لها بممارسة هواية القراءة إلى جانبه، أو حتى أخذ وقت للراحة. لكنها، مع ذلك، وجدت في الليل صديقًا دائمًا، رافقها في أمتع رحلات القراءة، حتى باتت تعترف بأنها مدينة له بهذه الصداقة التي لم تعرف يومًا معنى الضجر.

ذات مساء، بينما كانت تغوص في صفحات كتاب جديد، طرق والدها باب غرفتها بلطف، ثم قال بصوت دافئ:

– ألم تتعبي بعد؟ ألا تحتاجين إلى بعض النوم؟

رفعت عينيها عن الكتاب وابتسمت:

– وكيف أنام وهناك عوالم كاملة تتوق سماء عيني لأقطف نجومها؟

ضحك والدها، واقترب ليجلس بجانبها، متأملًا الكتاب في يدها:

– وما الذي يشغلك الليلة؟

أشارت إلى الصفحة التي كانت تقرأها وقالت بحماس:

– رحلة إلى المجهول، حيث لا أحد يعلم ماذا سيحدث في السطر التالي!

هزّ رأسه بإعجاب، ثم قال بلطف:

– حسنًا، لكن لا تنسي أن حتى المغامرين يحتاجون إلى الراحة ليكملوا رحلاتهم غدًا.

أغلقت الكتاب على مضض، وقالت بابتسامة:

– وعد، سأكمل الرحلة غدًا... لكنني لن أتأخر كثيرًا، فالمجهول لا ينتظر طويلًا

انتهت المرحلة الدراسية المتوسطة وعيناها ترنو إلى مقاعد المرحلة الثانوية ولكن كان عليها العودة إلى الوطن لأسباب يؤكد والدها بضرورتها حيث كان من أهمها حاجة والديه للرعاية والاهتمام فقد كان والدها بارًا بوالديه يرى في دعواتهم سببًا في استقامة أمور حياته وكان ذلك يبدو واضحًا في عينيه المليئة بالدموع أثناء حديثه عن تضحياتهم تُجاهه فهي لم تتذكر يومًا أنه أعطاها وعائلتها حقًا أكثر منهم أو بادلهم حبًا أعمق من حبه لهم وعندما كبرتُ أيقنت كم كان والدها رجلًا عظيمًا بفهمه لمرضاة الله وكم هي المرات التي خانها بها التعبير لكي تعطيه حق وصفه عند كل حكاية كتبها شريط الذكريات قبل أن توثقها على تلك الأوراق فقد عرفت من خلاله ماذا تعني الإنسانية وكيف تتغنى براحة يديه المعطاءة المتواضعة عندما تحزن.

عادت مرة أخرى إلى حضن وطنها، ترافقها والدتها وأخواتها، بينما بقي والدها في عمله، واعدًا إياها باللحاق بهن في العطلة الصيفية المقبلة. فقد كان معلمًا في إحدى أهم الجامعات، يشهد له زملاؤه وطلابه بمسيرته التعليمية العطرة، التي لم تكن مجرد علم ومعرفة، بل أخلاقًا وثقافة. لطالما حمل فكره آداب الحياة قبل علومها، وغرس في طلابه محبة الآخرين وإعانتهم قبل تثقيفهم. لذلك، لم تجد أي تعبير يصفه أكثر صدقًا من تلك العبارة التي كانت ترددها دائمًا:

"والدي ملاكٌ طاهرٌ يعيش على كوكبنا الأرضي"

كان هذا آخر يوم يقضيه معها قبل سفره، يحاول أن يخفف عنها الفراق، يملأ الحديث بروح الفكاهة والمرح، لكن شيئًا لم يكن قادرًا على محو بؤس تلك الليلة. كان الصمت يخيّم على الأجواء، والدموع تلمع في عينيها كحريق يلتهم صيفًا حارًا. كيف لا، وهو الذي كان يلازمها منذ طفولتها، يشاركها أدق تفاصيل حياتها، حتى أصبح بالنسبة لها ذلك الكل الذي ينسّق أجزاءها، ليعكس صورته كمرآة لذاتها؟ فكيف لها الآن أن تودّعه؟ وكيف لها أن تعيش بدونه؟

جلس بجانبها، ربت على يدها برفق، وقال مبتسمًا:

- ستكبرين يومًا يا صغيرتي، وستدركين أن البعد لا يغيّر القلوب.

هزّت رأسها بصمت، ثم قالت بصوت خافت:

- لكنك لن تكون هنا عندما أحتاج إليك...

تبسم بلطف، وقال وهو يمسح على رأسها:

- وهل كنتِ تعتقدين أن قلبي لن يكون معكِ في كل لحظة؟

لم ترد، فقط استسلمت لحضنه، تحاول أن تحفظ في ذاكرتها دفء وجوده، قبل أن يحتضنه الغياب.

ومع مرور الأيام، شعرت بأن كل شيء تغيّر. المدرسة لم تعد كما كانت، زملاء الطفولة تفرّقوا، كل منهم في صف مختلف، مع أصدقاء جدد. حتى الصف الذي جمعهم قديمًا تغيّر، كأن الماضي الذي اعتادته بدأ ينسحب من تحت قدميها، تاركًا إياها وحيدة في عالم بدا فجأة غريبًا ومختلفًا.

حتى خلال فترة الاستراحة بين الحصص الدراسية، لم تعد تلتقي زملاءها إلا مصادفة في باحة المدرسة. كانت تستثمر تلك الدقائق لحمل كتابها والجلوس تحت إحدى الأشجار، تنتظر موعد الحصة المقبلة. وهكذا، يمضي يومها الدراسي حتى يحين وقت العودة، فتنطلق إلى محطة انتظار الحافلة المدرسية، حيث كانت والدتها وأخواتها في المنزل ينتظرن عودتها لتناول الغداء والجلوس سويًا.

في تلك المحطة المتواضعة بجانب الطريق، كان يجتمع أغلب طلبة المنطقة للذهاب بالحافلة المدرسية المخصصة. كانت تبدو دائمًا فتاة جادة، تفضل الوحدة، وتبتعد عن العلاقات التي كانت تراها مجرد مضيعة للوقت. البعض رأى في ذلك رزانة ونضجًا، بينما وصفها آخرون بالغرور. لكن هناك شابًا واحدًا لم يقتنع بهذه التفسيرات، ذاك الذي رافقها ذكاؤه منذ مقاعد الطفولة.

ذات يوم، وبينما كانت واقفة عند محطة الحافلة، سمعت صوتًا خجولًا يناديها:

– مرحبًا... كيف كان امتحان اليوم؟

التفتت لتجد زميل الطفولة، ذاك الذي كان دائمًا هادئًا قليل الكلام، بدا على وجهه شيء من التردد، لكنه جمع شجاعته وأكمل:

– أسئلة الحفظ... لا بد أنك كنتِ سعيدة بها، أليس كذلك؟

ابتسمت وهي تغلق كتابها وقالت:

– ربما، لكنها لم تكن صعبة. ألم تجدها سهلة؟

تنهد وهو يحك رأسه بانزعاج:

– ليست المسألة في الصعوبة، بل في كونها مملة! لماذا علينا أن نحفظ بدل أن نفكر؟

ضحكت قليلًا وقالت:

– ربما لأن ليس كل شيء يحتاج إلى منطق معقد مثل معادلاتك.

رفع حاجبيه مُفكرًا:

– بل كل شيء يحتاج إلى منطق! حتى طريقة طرح الأسئلة تحتاج إلى إعادة نظر.

أخذت تفكر في كلماته، ثم هزت رأسها بابتسامة خفيفة:

– ربما... لكن في النهاية، الامتحان انتهى، وأعتقد أنك ستجد معادلة جديدة لتشغل بها ذهنك.
نظر إليها للحظة، ثم ابتسم بخجل قبل أن يقول:

– ربما، لكن... أعتقد أنني وجدت معادلة أكثر تعقيدًا من كل ذلك.

نظرت إليه باستغراب، لكنه لم يقل شيئًا آخر. فقط استدار مبتعدًا، تاركًا إياها تتساءل عن معنى كلماته الأخيرة.

لا إجابات منقولة، ربما كان ذلك يترجم نظرية غاردنر حول تفوق مهام النصف الأيسر من الدماغ: "اللغة، المنطق، التفكير النقدي، الأرقام، الاستنتاج". لا تزال تذكر نظرات التنافس العلمي على مقاعد المدرسة الابتدائية، ولا تزال إجاباته المتميزة عن الأسئلة التي كانت تطرحها المعلمة حاضرة في ذاكرتها. كانت تعترف له بعين الحق أنه يملك من الذكاء ما يستطيع أن يعلو به فوق مقياس التفوق المعتاد.

أما عن والدتها، فقد كانت تراها كالعطر الذي يسكن زوايا المنزل، يمنح كل ركن منه سكينة، وينثر عبقه بين طيات أيامها هي وأخواتها في غياب والدها. كانت تحرص على متابعة نفس التربية، ولكن بطابعها الحازم الذي لا يتضمن حتى القليل من التهاون. أمها، تلك المرأة ذات الشخصية النبيلة، التي تعلمت منها الصبر والوفاء والأمل. كم كان يعجبها إخلاصها لوالدها! كانت تراه في أدق تفاصيل حياتهم اليومية، حتى أنها ذات يوم لم تستطع مقاومة فضولها، فاقتربت منها وسألتها:

– أمي، كم تحبين أبي ؟

نظرت إليها والدتها بدهشة طفيفة، ثم ابتسمت وهي تمسح على شعرها بحنان:

– ولماذا هذا السؤال؟

ترددت قليلًا قبل أن تهمس:

– فقط كنت أتساءل... هل يمكن للحب أن يتوقف يومًا؟

ابتسمت والدتها ابتسامة دافئة، وقالت بصوت يفيض يقينًا:

– الحب الحقيقي يا ابنتي لا يتوقف، بل يكبر مع الأيام. قد يمر بلحظات صعبة، لكنه لا يذبل أبدًا إن كان صادقًا.

تأملت كلمات والدتها، وحاولت أن تستوعب معناها العميق. لم تكن تدرك تمامًا كيف يمكن للحب أن يصمد أمام الزمن، لكنها شعرت حينها بأن والدتها تحمل سرًّا لم تفهمه بعد، سرًّا ستدركه يومًا ما.

لتجيبها يومها أنها أعطت والدها كل حياتها، فلم يتبقَ شيء منها، لذا فليس هناك مدى باقٍ لحساب حجم ذلك الحب.
وما زالت تتذكر يومها كم كانت سعيدة، فهي تعرف ذلك بدون طرح السؤال، ولكنها أحبّت أن ترى منها ابتسامتها الجميلة التي افتقدتها بغياب والدها.

قالت لها أمها، وهي تنظر في عينيها بابتسامة دافئة:
– أعطيته كل حياتي يا ابنتي... لم أعد أملك شيئًا أُحصي به مقدار ما في قلبي له.
نظرت إليها متأملة وقالت بهدوء:
– كنت أعلم ذلك، لكنني فقط اشتقت لابتسامتك يا أمي... تلك التي لا تظهر إلا حين نتحدث عن أبي.

صحيح أن والدها أعطاهم الكثير من علمه وفكره، ولكن من جعل ذلك يرسو على ميناء النجاح والتفوق... هي أمها.

ها هو والدها يعود إليهم بعد غياب ثلاث سنوات مضت، كانت حينها تتهيأ لنتائج المرحلة الثانوية التي طال انتظارها، فقد كان طموحها يستجدي اختصاص الفلسفة تأثرًا بثقافة والدها الواسعة، ليوقفها أسلوبه الإقناعي عن اختيار ذلك الطريق، ويدفعها نحو تخصصٍ يُشبه شخصيتها من وجهة نظره.

ذات مساء، جلست معه في شرفة المنزل، تهمس بكلماتها في حضرة من تثق برأيه كقدَر:

– أبي لقد قررت أن أسجل في تخصص الفلسفة. لأنى أحبها... هذا لأنك السبب في تعلقي بها !

ضحك والدها برقة، ثم قال بهدوء:

– حبيبتي، أنا لا أنكر شغفك، لكن الفلسفة تحتاج جلدًا من نوع خاص... وأنا أراكِ إنسانة عملية، تحب العطاء والتأثير المباشر. مارأيكِ فى كلية التربية، ستكون هى الأفضل لكِ من وجهة نظرى

اعترضت قليلًا، لكنها ظلت صامتة.

رغم تعلقها الكبير بذلك التخصص، إلا أنها كانت تثق بقدسية اختياره، لتُسجل حينها في كلية التربية...

تلك الكلية التي لم تكن يومًا من طموحاتها.

وهذا ما جعلها تشعر بالاغتراب فيها منذ اليوم الأول، لتواجهها صعوبات في التأقلم مع موادها الدراسية التي تتبادل فيها لعبة تكرار الأفكار... ولكن بصيغ مختلفة.

بداية، كان اليوم يبدو لها طويلًا، تمرّ دقائقه دون سباق، وكأن الوقت لأول مرة يعقد هدنة معها. فما إن تنتهي المحاضرات، حتى تصعد إلى الطابق العلوي من الكلية، حيث المكتبة، لتستمتع بجولة بحث فيها، ثم تستعير ما يثير فضول فكرها، ويقنعها بأن الآتي سيكون أفضل. كان هذا ما زرع في داخلها ميولًا محملة بالرغبة في المتابعة، ليبدو العام الثاني أكثر هدوءًا، وتجد أحلامها ترسو على مدرجاتها، تلك التي كانت يومًا ما ساحة لحيرتها، تشكو الرتابة والملل.

ومضت خمس سنوات، كانت خلالها عيناها ترنوان بشوق إلى الفوز بمقاعد الدراسات العليا. وحين جاء الوقت، بدأت طريقها بالتسجيل في الدبلوم التربوي. وها هو والدها يرافقها إلى الكلية لإتمام التسجيل.

في ذلك اليوم، مشيا معًا عبر أروقة الكلية، وهي تشعر بسعادة غامرة، قائلة بحماسة:
– أبي، الحمدلله أنني أخيرًا سأبدأ مرحلة الدراسات العليا! أشعر بأنني اقتربت خطوة من تحقيق ذاتي.
ابتسم والدها وهو ينظر إليها بفخر، وقال:
– أنتِ تستحقين هذا ، يا ابنتي. لطالما كنتِ مجتهدة وأنا، على ثقة بأنكِ ستبدعين في هذا المجال.

لكن سرعان ما تحولت السعادة إلى صدمة، عندما وصلا إلى مكتب التسجيل، ليُفاجآ بأن الموعد قد انتهى، وعليها الانتظار للعام القادم. للحظة، لم تستوعب الأمر، فسألت الموظف بنبرة قلق:

– كيف انتهى التسجيل؟ كان من المفترض أن يستمر حتى نهاية الشهر!

أجاب الموظف بلا مبالاة:

– صدرت تعليمات جديدة، وأُغلق التسجيل قبل الموعد المحدد.

لم تستطع إخفاء خيبة أملها، لكن أكثر ما آلمها لم يكن تأجيل حلمها لعام آخر، بل نظرة الغضب والحزن في عيني والدها. لم يكن انزعاجه بسبب فوات الموعد فحسب، بل لأنه رأى في هذا القرار تعسفًا غير منطقي، خاصة أنها كانت تعاني في الفترة الأخيرة من عارض صحي ألزمها الفراش، مما حال دون تسجيلها في الوقت المناسب.

خرجت معه من الكلية بصمت، وهي تحاول أن تتمالك نفسها، بينما قال بصوت منخفض يحمل مزيجًا من الغضب:

– للأسف، بعض القوانين لم تعد تُسنّ بناءً على منطق أو مصلحة الطلاب... لكن لا تقلقي، العام القادم سيكون أفضل.

نظرت إليه بابتسامة متماسكة رغم ألمها، وقالت:

– أعلم ذلك، وسأكون مستعدة أكثر عندما يحين الوقت.

وبرغم الخيبة، أدركت أن ما حدث لم يكن نهاية الطريق، بل مجرد تأخير مؤقت لحلمها.

الفصل الثانى

"وعدٌ الشتاء... وثقة لا تُخيب"

شتاءُ ذاك اليوم، وحبالُ المطر التي تأبى التوقف، ومسك وأبوها يخرجان من باب الكلية، حين سمعته يتمتم ببعض العبارات التي التقطتها أذناها بصوتٍ خافت:

"لا بأس في الانتظار، ما دامتَ ثقتي بك تخبرني أن اسمك سيعلو فوق قوانينهم... تلك القوانين التي كتب الظلم في طيّاتها حكايات كثيرة لأجيالٍ مضت. حتى أن كثيرين أضاعوا مستقبلهم، ليتخبطوا في طرقات ليس لها قرار."

لم تكن ثقة والدها بها مجرد دعمٍ نفسي، بل كانت تضيف إليها شعورًا بالمسؤولية، وكأن سعادته باتت أمانة في عنقها. الامتنان لوجوده، والفخر بأنها ابنته، كل ذلك اجتمع داخلها، ليجعلها لا تسمح لأي شيء أن يمس تلك الصورة النقية في عينيه.

طوال الطريق، بقي والدها صامتًا، ينظر إليها بين الحين والآخر. نظراته كانت تقول بلا صوت:

"في الحياة أمورٌ لا يمكن علاجها إلا بالصبر يا ابنتي."

أجابته دون كلمات، فقط ابتسامة خفيفة على شفتيها، كانت بمثابة وعدٍ صامت: "أعدك يا أبي، بما تحب أن ترى."

وصلا المنزل، لتجد والدتها في انتظارهما وقد أعدّت طعام الغداء، كعادتها التي لم تتغير يومًا. لم تذكر يومًا أنها قصّرت في واجباتها نحوهم، حتى عندما كبروا، بقي حرصها كما هو، لا تشغلهم بشيء قد يسرقهم من واجباتهم التعليمية.

لم تكن أمها مجرد مربية فاضلة؛ فلقد كُرّمت مرارًا بلقب "الأم المثالية" في مدرستهم. بل كانت لها لمسات استثنائية، تفيض أناقةً في بيتهم الدافئ بالمحبة والاحترام.

دون ضجر أو تعب، لقد كرّست جُلّ وقتها لأجل تربيتهم تربية حسنة.

كانت تنهض قبل الجميع، وتبدأ يومها بسكون يشبه الدعاء، بينما يملأ رائحة القهوة البيت كما يملأه دفء حنانها.

منها تعلمت مسك كيف تكون امرأة مثالية؛ كانت تراها قدوة تسير على الأرض بهدوء الموقنين، إذ كان كل من في المنطقة يحترمها، ويشهد لها بعفة اللسان، وصدق الكلام، ومحبة الجميع.

لم تكن بحاجة إلى ضوضاء لتُعلن حضورها، بل كانت تؤدي واجباتها الاجتماعية بصمت دون تأخير، كأنما خُلقت من طين التواضع، وعُجنت بالصبر.
هي امرأة أدّت دورها بإتقان في حياتها الزوجية، تعرف جيدًا أين تنتهي حدود قراراتها ضمن دائرة احترام الرجل، لم ترفع صوتها إلا وهمًّا على أبنائها أو فرحًا بنجاحهم.

كان الجميع يرى والدها محظوظًا بها، برغم أنه لم يؤمن بالحظ يومًا، وهي كذلك.
لكن الحقيقة، التي لم تغيب عن قلب مسك، أنه كان مغمورًا برضا الله، ومحاطًا بدعوات والديه، وملفوفًا ببركة زوجة لم تطلب من الحياة إلا سعادة بيتها.

في صبيحة اليوم التالي، والندى لم يجف بعد عن النوافذ، ذهبت مسك إلى وزارة التربية، تحمل حقيبتها بيد، وطموحها باليد الأخرى، لتأخذ ساعات تدريس لمادة الفلسفة في التعليم الثانوي.
كان وجهها يحمل هدوءًا يشبه الأمس، لكنه يخفي وراءه شغفًا قديمًا للفكر والكتابة والطرح العميق.

وتم تعيينها في إحدى المدارس، بناءً على خبراتها في التدريس لسنوات مضت، وشهادات التقدير التي كانت تنالها من المدارس التي درّست بها.
ولم يكن ذلك التقدير مجرد أوراق موقّعة، بل كانت شهادات حقيقية لحضورها الآسر في الصف، ولأسلوبها الذي لا يكتفي بتوصيل المعلومة، بل يزرع سؤالًا في عقل كل طالب.

فمنذ السنة الثانية في الجامعة، كانت تنظم أيام الأسبوع بين التدريس في مدرسة، والدراسة في الجامعة.
لم تكن تفكر في الوقت أو التعب، بل كانت تنظر إلى الأمر كما لو أنه تدريب مبكر على أن تكون أكثر من مجرد أستاذة جامعية أن تكون قدوة.
وبرغم أن ذلك الأمر كان متعبًا، إلا أنها كانت تجد فيه متعة فكرية تُرضي شخصيتها العلمية والعملية.
كأن كل كتاب كانت تقرأه، وكل سؤال كانت تطرحه، يُنبت فيها جناحًا جديدًا، ويجعلها أكثر قربًا من تلك النسخة التي حلمت أن تكونها.

انتهت العطلة الصيفية، وعليها الاستعداد لمراقبة موعد التسجيل في الجامعة للدراسات العليا.
ما زالت مسك تتذكر شتاء ذلك اليوم الذي كان والدها فيه حزينًا، تتذكر ملامح وجهه المتعبة، وصمته الطويل الذي كان أثقل من المطر.
وما زالت تتذكر الوعد الذي قطعته على نفسها يومها، حين قالت له وهي تضغط على يده بحنان:

"أعدك يا أبي، هذه الفرصة من الصعب تكرارها وسأنجح بقطف ثمارها، سأعود إليك بقبولي في الدبلوم، سترى."

كانت أيامًا قليلة تفصلها عن إعلان الجامعة لشروط التسجيل، وتحديد موعد انتهائه، ثم الموعد المقرر لصدور أسماء المقبولين في درجة الدبلوم.
في ذلك اليوم، لم يستطع والدها الذهاب معها، فقد كان جدوله المدرسي مليئًا بالحصص الدراسية.
قال لها قبل أن تغادر:
"انتبهي على نفسك، أوراقك مرتبة، وثقتي بك لا تهتز."
أجابته بابتسامة:
"أحبك أبي ، كما وعدتك فقط ادعُ لي."

ذهبت حينها مع أختها للتسجيل، مصطحبة الأوراق المطلوبة.
كانت ساحة الكلية تغص بالطلبة، والوجوه المتوترة تملأ المكان، كأن الجميع في سباق لا مجال فيه للعودة.
كانت الأعداد تفوق التوقع، رغم علم الجميع أن هذه الأعداد الكبيرة لن يُقبل منها سوى عدد قليل، وفق معدلات عالية يضعها النظام الجامعي.

راحت مسك تحدث نفسها وهي تنظر إلى الطابور الطويل:
"يا إلهي، هل سأكون من بينهم؟ أرجوك أريد أن يتحقق حلم أبي؟"

ولم يتوقف الأمر عند ذلك فقط، بل حين يتم قبولك، سيكون هناك العديد من التخصصات، وبالتالي سوف يتسابق أصحاب هذه التخصصات على المركز الأول، لضمان الحصول على مقعد في درجة الماجستير.
في البداية، كانت تعتقد أنه يكفي أن تحصل على المركز الأول في تخصصها لتضمن تلك الدرجة، وبقيت تتمتم:

"سأجتهد، سأكون الأولى، وسأنال درجة الماجستير مهما كلّفني الأمر بإذن الله."
ولكن عندما سألت الموظفة المختصة بالكلية عن التفاصيل، كانت الإجابة صادمة بعض الشيء.
قالت لها الموظفة بنبرة رسمية:
"في دبلوم التأهيل التربوي، لا يكفي أن تكوني الأولى في تخصصك فقط، بل يجب أن يتفوق تخصصك على باقي التخصصات أيضًا، المنافسة بين الجميع، والأولوية حسب الاحتياج وعدد المقاعد، وليس فقط المعدل."

شعرت مسك حينها بتيار بارد يسري في جسدها، وكأن الطريق الذي تخيلته مستقيمًا، قد امتلأ بالمنعطفات فجأة.
لكنها تماسكت، وقالت في سرّها:
"لا بأس، لقد قطعت وعدًا.. وسينتهي العام وفرحة أبي بين يدي.

الفصل الثالث

السباق إلى القمة امتحان مع الذات

كان نظام التسجيل في درجة الدبلوم في كلية التربية يتضمن جميع التخصصات، حيث كانت هناك أكثر من خمس تخصصات ضمن الكلية، بالإضافة إلى التخصصات الأخرى مثل الفيزياء، والكيمياء، والعلوم، والفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والجغرافيا، وغيرها. وكان يتعين على الطالب أن يحصل على المركز الأول في جميع هذه التخصصات ليضمن قبوله في درجة الماجستير. هذا النظام، في نظرها، بدا وكأنه أسلوب محبط لكل من يطمح في متابعة الدراسات العليا، إذ كان يتطلب جهدًا مضاعفًا وتفوقًا لا يمكن تحقيقه بسهولة.

"كيف يمكن لطالب واحد أن يكون الأول على كل هذه التخصصات ؟" كانت تسأل نفسها، مع إحساس متزايد بالضغط. لكن رغم الإحباط الذي بدأ يتسرب إليها، كان هناك شعور آخر يتولد داخلها، شعور بأن هذا الاختبار ليس فقط في مواجهة النظام الجامعي، بل كان اختبارًا حقيقيًا لها ولقدرتها على مواجهة الصعوبات. كان اختبارًا لفكرها، وعزيمتها، ورغبتها في تحقيق ما يبدو مستحيلاً.

في تلك اللحظة، أخذت بطاقة التسجيل وأخذت تنظم أفكارها. "لا وقت للضياع، لا مجال للتراجع"، فكرت، بينما كانت تدرك أنها ستحتاج إلى وضع مخطط دراسي محكم، سباق دائم مع الوقت. ومع مرور الوقت، بدأت أفكارها تتسارع في عقلها، وكأن هناك حافزًا خفيًا يجعلها تتحرك بسرعة أكبر.

والدها، الذي كان يتابع كل شيء عن كثب، كان على يقين بأنها لن تتنازل عن المركز الأول. كان يردد دائمًا: "مخططك الدراسي هذا جريمة بحق الذات والفكر، لكن لنفسكِ عليكِ حق ستنجحين لأنكِ لا تعرفين الاستسلام". كانت كلمات والدها بمثابة دافع لها، لكنه أيضًا كان يعلم أنها لن تكتفي بأي مركز سوى الأول. كان يؤمن بأنها ستتحدى كل الصعاب، وأن الفوز سيكون حليفها في النهاية.

بعد عدة أيام، صدرت أسماء المقبولين في درجة الدبلوم، وكان من بينها اسمها. كانت تلك لحظة حاسمة، لكنها لم تكن نهاية المطاف. جاء البرنامج الدراسي للمحاضرات الأسبوعية، وهو ما زاد من التحدي. لم يتضمن البرنامج سوى يوم واحد للعطلة، وبالتالي كان من المستحيل أن يتغيب الطالب يومًا واحدًا عن أي يوم من الأيام. الساعات النظرية كانت تتطلب حضورًا مستمرًا، وإذا أرادت أن تستمر في هذا السباق، فلا مجال للراحة.

فكرت في نفسها: "يجب أن أكون مستعدة، فهذه هي الفرصة التي لن أسمح بمرورها

لأنها مفتاح المستقبل المنتظر .

إلى جانب الدراسة النظرية، كان هناك الجانب العملي، والذي لا يقل أهمية عنها، بل يشكّل جزءًا أساسيًا من التقييم. وفي حال تكرار الغياب ثلاث مرات، يتم فصل الطالب من المادة مباشرة. ومع هذا الكم الهائل من ضغط الدوام، يعود الطالب إلى المنزل منهك الفكر، يحتاج إلى الراحة والنوم، ثم يُفترض به أن ينهض من جديد لمراجعة ما تم أخذه طيلة اليوم، وإنجاز المشروعات العملية المطلوبة كوظائفٍ لا بد من تسليمها في وقت محدد.

في أحد المساءات، وهي تجلس في غرفتها تتصفح ملاحظاتها وتراجع خطتها الدراسية، قالت بصوتٍ هادئ تخالطه نبرة من الإرهاق والاعتراف:

"أعرف أنني في هذه المرحلة قسوتُ على نفسي دون قصد... لكن هدفي لم يكن المركز الأول بحد ذاته، بل كان وسيلة لتحقيق ما أصبو إليه. المركز الأول مجرد بوابة، فقط للعبور."

شارفت السنة على النهاية، وجاء اليوم المنتظر، لتقديم المقرّر الأخير من الامتحان النهائي. اجتمع الطلبة أمام القاعة، وكانت وجوههم تعجُّ بالمشاعر المختلطة: فرح، توتر، وراحة قريبة. بعضهم اتفقوا على القيام برحلة بعد الخروج من قاعة الامتحان، وآخرون اجتمعوا لزيارة أحد الزملاء في منزله، فيما كان هناك من يخططون لحفلة موسيقية مساء ذلك الصيف.

أما هي، فما إن انتهى الامتحان حتى خرجت مسرعة من القاعة، تفتح هاتفها بلهفة لتجد رسائل من والدها. سارعت إلى الاتصال به، وكأنها تدرك تمامًا أنه ووالدتها كانا ينتظران تلك المكالمة بشغف.

- "ألو... أبي؟"

- " كيف كان امتحانكِ اليوم؟ الحمدلله لقد كان جيدًا، أجدتُ الإجابة على معظم الأسئلة. لا تقلق يا أبي"

جاء صوت أمها من جانبه:

- "الحمد لله يا ابنتي... أرهقتِ نفسكِ كثيرًا، لكنكِ كنتِ على قدر التحدي."

ابتسمت وهي تسير نحو المخرج، تتنفس أخيرًا شعور الإنجاز، وقالت بهدوء:

- "كل التعب سيزول حين أحقق ما حلمتُ به، وحين أرى بريق الفخر في أعينكم"

كانت تدرك أن هذه المكالمة الصغيرة، بصوتها المطمئن، هي البلسم الذي انتظره والداها طيلة عامٍ من الصبر والدعاء.

كان والداها ينتظرانها بفارغ الصبر، يرفعان أكفّ الدعاء، يرجوان الله بكل خشوع أن يوفّقها ويكتب لها النجاح. كانت تلك الساعات ثقيلة على قلبيهما، ثقيلة حدَّ الانهيار. ذات مرة، قال لها والدها بصوتٍ متهدّج:

- "أعصابُنا انهارت، يا ابنتي... لم نعد نتحمّل هذا القلق."

نظرت إليه بعينين تملؤهما الثقة والامتنان، وابتسمت بحنوّ قائلة:

- "لا تقلق يا أبي، العلامة الكاملة اليوم بإذن الله."

كم كانت تؤلمها صدى عبرات تلك الدموع في حناجرهم، على الرغم من أنها كانت دموع الفرح والغِبطة، لا الحزن. لكنها كانت تشعر بأنها مدينة لهما بالكثير... الكثير جدًا. وكم هي ممتنّة بلا حدود لله، على توفيقه ورحمته، لأنها كانت سببًا في رسم السعادة على وجهيهما.

وكعادتها، ما إن تنتهي من امتحانها حتى تذهب مسرعة إلى المنزل، وكأنها تهرول إلى ملاذها الدافئ. كانت تشعر حقًا بأنها لم تنم منذ زمن بعيد، لكنّ كل هذا الشعور بالتعب يغادر سريعًا برؤيتهما في انتظارها، بوجهيهما الممتلئين حبًا وفخرًا.
مرت أيامٌ قليلة، وبدأت نتائج المقررات تظهر تباعًا، حتى اقترب الجميع من معرفة النتيجة النهائية لآخر مقرر. هناك فقط سيُعلن من كان صاحب المعدل الأعلى، ومن استطاع أن يتفوّق على جميع التخصصات.

رغم كلّ ما حدث، لم يكن الأمر مفاجئًا. فالبَنان كثيرًا ما كانت تشير إليها، خاصة عند صدور نتائج الفصل الأول، حيث تصدّرت القائمة بجدارة. ومع ذلك، لم تتوقف بعض الأصوات عن الرهان على نتائج الفصل الثاني، على اعتبار أنها الحاسمة والفاصلة في هذا السباق.

لم تزعجها تلك الأقوال. على العكس تمامًا، كانت ترى في نظرات منافسيها التي كانت ترشقها بسهام التحدّي... اعترافًا ضمنيًّا ومشرّفًا بتميزها. لقد رأت في تلك النظرات نجمة لامعة، تنير دربًا جديدًا، وتحفّزها على المضي قدمًا بثقةٍ وإصرار.

الفصل الرابع

"تراتيل التميز ودموع الحمد"

من دروب التميز في مسيرتها التعليمية، أعلنت الجامعة في مساء يوم الاثنين، عبر مواقعها الإلكترونية، الاسم الأول على مستوى القطر في دبلوم التأهيل التربوي.

كان ذلك الاسم هو اسمها، الذي اختاره لها والدها يوم ميلادها. لحظاتٌ كهذه لا يمكن تقديرها بأي ثمن يُذكر. وفي تلك الليلة، كانت تراتيل الحمد تملأ أرجاء قلبها، ترسل رسائلها الروحية المغمورة بدموع الفرح، والثناء، والعرفان بفضل الله عزّ وجل.

قالت وهي تمسح دموعها وقد علت وجهها ابتسامة مطمئنة:

- "الحمد لله... الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه."

كانت تؤمن إيمانًا عميقًا بأن الإنسان، لو قضى أعظم الأسباب، وأفنى وقته وجهده في سبيل تحقيق أمانيه، فلن يُكتب له النجاح ما لم يُقدّر له التوفيق من رب العرش العظيم.

قالت ذات مساء لأختها وقد جلستا تتأملان ما مضى من أيام السعي والكدّ:

- "الفضل بيد الله، ولله كله. نحن فقط نأخذ بالأسباب، أما النتائج فهي بيده سبحانه."

ثم أضافت بنبرة صادقة:

- "لا تدعي الفكر يقف حائرًا أمام أصحاب القامات المتعجرفة. فما وصلوا إليه ليس بمجهودهم الشخصي وحده، ولا كما يظنون لعبة حظ. بل هو، أولًا وآخرًا، رحمة من الله."

سكتت برهة، ثم قالت بصوت خافت كمن يهمس لنفسه:

- "ومع أمثالهم... تبقى حكمة الله التي لا يدركها سواه"

هكذا اختتمت تلك الليلة المباركة، وهي تشعر أن التميز الحقيقي لا يُقاس فقط بالمراتب، بل بالرضا، وبالسكينة التي تسكن القلب حين نعلم أن ما ناله الإنسان هو بتوفيق الله أولًا، ثم بجهده وصبره.

بعد عدة أيام مضت، بدأ الدوام في الجامعة. ففي هذه المرة، الأمر مختلف تمامًا... إنها مقاعد الدراسات العليا، تلك المدرجات التي طالما رسمها الخيال كلوحات واقعية، تزاحم ألوانها شبابيك الزمن بصبر لا ينفد، لتغدو الآن حقيقة ماثلة.

دُوِّن اسمها في برامج الكلية كمُحاضِرة لمادة مناهج البحث في التربية لطلبة السنة الرابعة. بحقيبتها وأقلام السبورة الملوَّنة، كانت تُلقي محاضراتها وفق مبادئ طالما آمنت بها، فأصبحت مهاراتٍ شخصية وثقافية، ذات طابع تربوي علمي متميّز.

كانت المحاضرة تبدأ بصوتها الواثق:

ـ "أحبتي الطلبة، لنتعلّم كيف نبحث عن الحقيقة لا عن الدرجات... إن مناهج البحث ليست كتابًا ندرسه، بل طريقًا نبنيه بأنفسنا نحو المعرفة."

وهكذا، جعلت من ذلك المدرج فضاءً يعبق بأحلام وآمال وآلاف الطلبة، حتى وقف عدد كبير منهم على الأبواب، فما عاد هناك متسع... الجميع حاضر، الكل يصغي، والأنفاس تكاد تُحبس، والعيون تتابع كل كلمة.

في تلك اللحظات، كان يوقفها الصمت على المنصة، فتغمض عينيها، وتهمس في خشوع:

ـ "اللهم إني عاجزة عن شكرك... ولكنك تعلم كم كان الطريق طويلًا و مرهقًا .. فلك الحمد حتى ترضى."

بين عائلتها التي أضاءت بدعواتها كل خطواتها وأوقاتها، كانت تمارس مسؤولياتها العلمية والعملية، يومًا بعد يوم. كانت تُدرّس في الجامعة، وتتابع واجباتها البحثية للحصول على درجة الماجستير، بسعادة لا يمكن أن يصفها سوى ذلك النشاط الدؤوب الذي لا يعرف السكون، ولا يتوقف عن الحلم.

كالطيف الملائكي أنتَ، يا والدي...
تنثر طيب الكلام بعاطفةٍ نبيلة، ألفت فيها أيام العمر ربيعًا دائمًا في كل الفصول.
ببصيرةٍ تعرف الله قبل كل شيء، لتستقيم إنسانيتك في كل شيء.

وبينما كانت هي على تلك المنصة، تضيء شاشة الهاتف أمامها، لتصلها رسائله المفعمة بالعشق الأبوي.
تساءلت في سرّها:
ـ "هل كان يقصد بتلك الرسائل السلام؟ أم الامتنان؟ أم كان يجد فيها تعبيرًا ينصف ذلك الكم من الحب الذي يحمله في قلبه؟"

من بين تلك الرسائل، كانت هناك رسالة واحدة أعادت قراءتها مراتٍ ومرات، كل مرة بدموعٍ تنهمر كأنها صلاة...
ودّت حينها، لو تُهدي جوابها قُبَلَ عرفانٍ على قدميه الطاهرتين.

كانت الرسالة تقول:

"آيا مسك، أنا سارج بين ساليتين وساقيةٍ واحدة...
صلاتي وأنتِ.
أسقيتهما من دمائي، فأشمختِ علوًا من العلم، ثم تنوّرتِ.
في الصبر سرجٌ من الكاملات، وفي السر من يحفظ السر...
وقلَمي إمساكٌ لعاشقتين: صلاتي وأنتِ، المُحيّا."

قرأت كلماته مرة أخرى، وأخرى... حتى ضاعت نظراتها بين سطورها، وتوقفت عند كل حرف كأنها تتهجّى حكايتها من جديد.

ثم همست لنفسها:

ـ "أي أبٍ أنتَ يا أبي؟ وأي لغةٍ تلك التي يكتبها قلبك؟"

تخيلت حاله في ذلك اليوم، بعد أن فرغ من قراءة جريدة الصباح، وسماع الأخبار العالمية...
تلك التي كانت كفيلة برسم القلق على وجهه، القلق الذي يعاكس دائمًا ابتسامته الدائمة، تمامًا كبزوغ خيوط الفجر، تختال خجلًا بلقاء الصباح.

معاودًا وضع نظّارته برفق، يتنهد والدها بصمتٍ حنون، كأنما وجد الطمأنينة في البوح بمشاعره،
وكأنه يقول لها دون صوت:
ـ "استودعتكِ الله، يا ابنتي.."

تأمّل ساعة يده قليلًا، يتحرّى الوقت المتبقي لانتهاء محاضرتها الأخيرة في الجامعة.
كان يتشوّق لسماع النقاشات الحوارية التي دارت بينها وبين طلبتها في ذلك اليوم.
كم كان يحب أن يصغي لتفاصيلها وهي تروي له بلهفة ما جرى، يناقشها، يشاركها الرأي،
حتى بات رأيه مرآةً لخيالها، يقودها إلى آفاقٍ لا يُعرف لها انتهاء.

فقط معه ، لم تكن تشعر بالجوع للعلم أو المعرفة،
فهو من كان دومًا يغذّي هذا الشغف فيها بثقافته الواسعة وفكره المعطاء وشخصيته النبيلة .
كم من مرة قال لها، مازحًا وهو يبتسم:
ـ "معذورةٌ يا ابنتي، معذورة... ألم تسمعي من قبل دون صوت؟

جائعان لا يشبعان: طالبُ علمٍ، وطالبُ مال."
ثم يضحك ويضيف بحنو:
ـ "فحمدًا لله أنكِ كنتِ من ذاك الأول."
في نهاية تلك المرحلة، لم تشعر سوى أنها فتاةٌ ناجحة، أخلصت في علمها، وسمت في عملها.
احترمها الجميع، وقدّروا المكانة التي بلغتْها بثباتٍ وبمبادئ راسخة، لا تزعزعها الأحداث، مهما عظمت.

لكن...
ماذا عن الطموحات؟
ما زالت حتى هذه اللحظة تعيش الروتين ذاته:
البيت، الجامعة، القراءة...
دائرة مألوفة تدور فيها يومًا بعد يوم، كأنها عقارب ساعة لا تعرف الانحراف عن المسار.

ولكي لا تقع في فخّ ذلك المصطلح الذي بات يؤرق العالم "التطور التكنولوجي":
كانت تلبسه أثوابًا جديدة، تزينها بألوانٍ مشرقة تتّفق مع أحلامها...
وتنسج من خيوط أيامها فكرةً لعملٍ قادم، لا بدّ أن يولد.

الفصل السادس

رحلة الابتكار

فكرة مُبتكرة في تخصصها، لا تكتفي بما هو مألوف، بل تسعى دائمًا إلى إشباع شغفها بإضافة لمسة تربوية تعليمية، تكون مفتاحًا لحلّ مشكلات باتت تؤرق واقعنا في عالم التعليم.
فهي تؤمن أن هذا العصر، بكل تحدياته، بات على وشك أن يغلب عقولنا، إن لم نكن على استعداد لمواكبته بفكر خلاق.

وهكذا، بدأت بخطوات ثابتة في رسم المسارات الأولى، منطلقة من عمق الواقع التعليمي، تستمد رؤيتها من خبرتها العملية في مركز تطوير المناهج، حيث كانت واحدة من النخبة التي انتدبتها الوزارة للعمل هناك في أوقات محددة، ضمن فريق ضم اختصاصيين من مختلف المجالات.

كان الفريق آنذاك بصدد تعديل المناهج، بما يواكب التطور العلمي والتكنولوجي السريع.
وبينما كانت تتابع النقاشات وتجارب التطوير، خطرت لها فكرة:

ـ "ولم لا يكون هذا العمل، بهذه الأهمية، نواة لأطروحتي في الدكتوراه؟!"

نظرت إلى زميلتها ذات يوم وقالت بحماس:
ـ "سأكرّس هذا الجهد في بحث علمي، سيكون الأول من نوعه عالميًا، وسأدرجه ضمن برامج الجامعة."

أجابت زميلتها بإعجاب:
ـ "فكرة جريئة ومُلهمة! وهل حدّدتِ من سيشرف على هذه الأطروحة؟"

أجابت بثقة:
ـ "نعم، لقد قمت بالاتفاق مع أستاذة في الجامعة، تشهد لها قاعات العلم بضميرها الحيّ، ونسائم الأمانة العلمية تهبّ مع خطواتها. أثق أنها ستكون خير من يوجّهني في هذا الطريق وفي الحقيقة هذا الاختيار كان حلمًا بالنسبة لي."

بهذا الحلم المتّقد، بدأت رحلتها الجديدة، واضعةً نصب عينيها هدفًا واضحًا:
أن تصنع فارقًا حقيقيًا في مجال التعليم، لا بالتنظير، بل بالتطبيق والعمل.

لقد كانت محبة البحث العلمي هي دافعها الأول، وكأنها تعزف على أوتار الطموح سيمفونية تفتح أبواب المستقبل، فتغني ألحانها لأيامٍ قادمة. كم كانت فخورةً بأنها نهلت من علمها وثقافتها، واستنارت من خبرتها الواسعة، وأنها رافقت شخصية نبيلة، طبعت بصمة استثنائية في مسيرتها العلمية.

ورغم الصعوبات التي اعترضت خطواتها في كثير من الأحيان، كانت تجد البدائل المناسبة، وإن استغرق ذلك منها وقتًا أطول. فقد اعتادت على الصراع مع الوقت، بسيف الصبر الذي يعدها دائمًا بسلامة العبور، وبشرف الانتصار. فكانت تكتب إنجازاتها على صفحات الأيام، سطورًا تبوح للغد بابتهالات لا تعرف إلا التواضع. كانت تتنقل بين أحلام العارفين، يرافقها صمت الليل الذي كان مبتسمًا خجلًا أمام أرق الأجفان التي تتنكر لوداعه دون امتنان.

كان الليل بالنسبة لها رحلة فكرية، كأنها أبحرت في لُجّته بشراع من أفكارٍ بنفسيجية، تحمل الأماني مصحوبة بدعوات تؤمن بمن زرعها في قلبها، لترى الواقع وكأنه يصفق لها، ويشجع خطواتها في الغد القريب. "إنه الله"، الذي كان ينير.

الله الذي تجنب ركنها إلا له في رحلة حياتها، فهي كانت تعلم تمامًا أنه لن يكون في مأمن حتى يُكتب لها النجاة إلا في رحاب ذلك الركن المتين. لطالما حرصت على البوح لطلبتها بذلك السر القابع في قلبها، الذي كان يظل يضيء طريقها، مهما كانت العواصف.

خلف كل نجاح، هناك دائمًا سبيلٌ آمنٌ للعبور لأولئك الذين تعبوا في درب الحياة، وللطامحين وعدٌ صادقٌ بترجمة المستحيل إلى واقعٍ ملموس. كانت العلاقة بينها وبين طلبتها، في جوهرها، تصويبًا للأخطاء، لا مكان فيها للتعليقات التي تضاف إلى سجل العقوبات، بل كانت علاقة مليئة بالمودة التي تضع الجميع في موقع مسؤوليته، حيث يدرك الكل واجباته تجاه الآخر. وعند حدود هذه العلاقة، كانت المحبة والإخاء تسود، لا السلطة والتسلط.

قالت بابتسامة هادئة: "أعلم أن الطريق لم يكن سهلاً، ولكننا كنا نعمل على تصويب الأخطاء، ليس بنية الانتقاد السلبي، بل بهدف تحسين كل شيء"

"نعم، كانت العلاقة بينهم دائمًا تركز على بناء، لا على هدم. وكل منهم كان يعلم واجبه تجاه الآخر."

كانت تلك المودة التي ارتقت بمن عصفت بهم الحياة على أسوار العلم، فأحيت الأمل في قلوب اليائسين من تقلبات الظروف، ودفعَتهم إلى المحاولة بدلاً من الاستسلام. لم يحتشد الآلاف من الطلبة لحضور تلك المحاضرة إلا بدافع الحب للمعرفة، ولتغذية الطموحات، وليس من أجل النجاح فقط، كما يظن البعض. كان ذلك هو الهدف الذي تصبو إليه، إذ غمرتها تلك المحبة الصادقة براحة الضمير، وأمدتها بعزم غير منقطع في أداء رسالتها العلمية.

قالت لها إحدى الطالبات بعد المحاضرة: "لقد أيقظتي حب الإبداع فينا اليوم . شعرتُ حقًا أننا بحاجة إلى هذه الكلمات لتجديد حماستنا."

أجابتها وهي تبتسم: "هذا ليس إلا واجبي، وأنا سعيدة لأنني استطعت أن أكون جزءًا من رحلتكم التعليمية."

لم تكن تؤدي هذه الرسالة بأمانة فحسب، بل بروح من العطاء، وهو أسلوبها المميز الذي أعطاها مكانة خاصة بين جميع من عرفوها. والجدير بالذكر أن الجميع، بلا استثناء، كانوا يعرفون إن منصتها لم تشهد يومًا سجلًا يُلملم أسماء الغائبين و أنها لم تحمل يومًا سوى حقيبة واحدة، تلك الحقيبة التي تحتوي على كتاب تربوي وأقلام بألوان مشرقة. كانت تلك الأدوات هي وسيلتها لترجمة إنسانية العلم بين صفحاتها، حيث كانت تعلم أن العلم لا يُترجم إلا بروح البشر.

قال لها أحد الزملاء ذات يوم: "أنتِ تحملين دائمًا تلك الحقيبة، وكأنك تحملين رسالة عالمية."

أجابته بابتسامة رقيقة: "نعم، إنها رسالتي. لكل قلم ولكل كتاب في تلك الحقيبة لهما معنى في حياتي وفي تلك الرسالة

هكذا عبرت بها الأيام، دون أن تعقد أي سلام مع تلك الأقفال التي تحكم شباك ذلك النبض، المبصر بعين الفكر. توقفت ذات مرة مع ذاتها عند استفهامٍ بات يثير فضول الآخرين: لماذا ترفض الزواج؟

كان الأمر عاديًا أن يُطرح هذا السؤال على فتاةٍ قد بلغت من العمر ما يجعلها الآن أمًا لطفلين. لكن تساءل الجميع عن سبب رفضها لتلك الخيارات المغرية في زمنٍ باتت فيه معايير الماديات والشكليات هي الأكثر شيوعًا. هذا يملك من المال أكثره، وذاك من الحسن أجمله، وأما هذا فيشغل من المناصب أفضلها. فماذا عن تلك الفتاة؟ لماذا ترفض أن تضع نفسها في دائرة الزمان والمكان كما يفعل الآخرون؟

قال أحدهم ذات يوم، موجهًا حديثه إليها: "ألم تفكري في الاستقرار؟ ألم تشعري يومًا برغبة في تكوين أسرة، كما تفعل أغلب الفتيات في سنك؟"

أجابته بابتسامة هادئة، لكنها مليئة بمعانٍ عميقة: "الاستقرار بالنسبة لي لا يكمن في الزواج، بل في أن أحقق ما أريد . طموحاتي ليست عبئًا عليّ، بل هي نبع قوتي."

"ولكن لماذا ترفضين كل تلك العروض؟ أليس من الطبيعي أن تختاري شريكًا يشبع قلبك؟" تساءل آخر.

أجابت بصوت مليء باليقين: "لا أرى في الزواج عبئًا أيضاً، بل أراه مرحلة قد لاتتفق مع ما أطمح إليه. حياتي الزوجية لن تكون سوى محطة في درب طويل مليء بالأهداف التي لا أستطيع أن أحققها إلا بيدٍ خالية من الالتزامات التي قد تقيّد طموحاتي."

كثيرون فسروا تمردها على أفضل الخيارات بوصفها بالغرور، بينما كان البعض يرون أن الكتب قد شغلتها عن التفكير في الجانب العاطفي. كانوا يعتقدون أن حياتها الزوجية أضحت محطةً تشكل عبئًا على طموحاتٍ غدت، في نظرهم، تملكها بعد أن كانت ملك يديها.

لكن، في النهاية، طواها النسيان في ذاكرةٍ لا تعبق سوى برائحة المطر و مجلدات الكتب، فكما تمردت على معايير الحياة التقليدية، كانت قد رسمت لنفسها مسارًا مغايرًا، مختلفًا عن الذي يتوقعه الجميع

في الحقيقة، لم يكن ذاك الكلام يزعجها أو حتى يعبث باكتفاء السكون في داخلها، إلا أنه تطلب منها إفساح المجال للمناقشة مع ذاتها. فهي لم تعتد الهروب يومًا من حقوقها أو إنصافها. قد تكون عودتها على الإيثار بتلك الفطرة النقية، لكنها لم تقصد لها شبح الظلم عنوة.

في جلسة المناقشة تلك، حاورت ذاتها يومها بعين الفكر وروح القلب، دون سلطة الطموح، لتجيب حينها عن سؤال قد اعتادت على مواجهته:

"من؟ وماذا؟"

كان سؤالها الأول، "من هو ذلك الرجل الذي يعبر بشراعاته محطات الروح بالفكر؟"
جال خيالها وهو يغمُرها بتلك الابتسامة المفعمة التي كان يقدّمها كاعتراف له بذلك الانتصار الذي حققه في نفسه، وفي قلبها.

"ماذا بعد؟ هل أكتفي بهذا؟ أم أن الروح ستقف على شرفات الأفق البعيد، تناظر الأفق الرحب والعطر الذي يسكنه؟"

ثم تطرّق تفكيرها: "هل ستحاصرها أمانٍ تقف حاجزًا أمام أوجاع الخذلان بأسوار الوفاء؟ كما تحاصرها عيناه في زحام الخريف؟" وتكمل بعينين مليئتين بالحب: "ستكتب عن جمال الربيع فيها ، حتى وإن نفد من الدواة المِداد."

ثم ابتسمت لمرور طيفه الغائب ، كما لو كانت تدرك أنها في تلك اللحظة تخاطب به المستقبل، أو ربما كانت تكتب عن نفسها وما آمنت به، حيث يظل السؤال قائمًا:

"هل ستنتصر بذلك الاختيار الذي تراهن عليه
أم سيظل الأفق بعيدًا؟"

وفي النهاية، أضافت بإصرار: "أي أن على ذلك الرجل أن يحمل مفاتيح تلك الرموز المعلقة تحت إشعار آخر، دون ميعاد، ليكون أيقونة الروح."

بتلك القناعات من الظلم وصفت روحها كفراش يبتعد أكثر فأكثرعن ألوان النور خوفًا من الاحتراق ليجد في السلام مع الوحدة مسكنه الآمن، بل كانت بذلك السلام الداخلي تحاكي المنطق بعين الفكر ونبل العاطفة وسطوة الأخلاق وإنصاف تلك الرموز التي حملتها زمنًا طويلًا بأطواق النجاة البنفسجية.

الفصل السابع

" بين الأمل والابتلاء"

لم يتبقَّ سوى أشهر قليلة على موعد مناقشة أطروحة الدكتوراه، فقط أربعة أشهر، لتكون قد أنهت عملها الذي ينتظره جميع أساتذتها، الذين كانوا على يقين بأن هذا الإنجاز سيكون مصدر فخر لجامعتها. كيف لا؟ وهم كانوا بمثابة النور الذي أضاء دروب أبحاثها العلمية. وها هم طلبتها يستعدون لحضور تلك اللحظات التي انتظروها، وكلهم فخر بها كما هي فخورة بإجتهادهم ومبادئهم التي ترجموها سويًا بتربوية وإنسانية معطاءة في الميدان العلمي والعملي تشهد لهم بالإخلاص طوال تلك السنين.. أما عائلتها، فقد كانت بدعواتها تمثل ذلك الأمان الذي يجنبها عثرات المسار، لتقودها نحو منصات الارتقاء. سُقيا لتلك الأيام التي مضت، تحمل السلام في أكفها، وتعيش بضجيج صدى الانتظار لحجز تذكرة الفرح.

لكن، إنه القدر ، جاء كعادته بغتة دون موعد مسبق. يتكلم بلسان الحق، مذكرًا إياها بالموت، ومبشرًا بالصبر. "أي ابتلاء هذا الذي طرق أعماق قلبها؟"، صرخت من أعماقها، وعيونها تهيم في سماءٍ مليئة بالتساؤلات التي تبدو بلا إجابة.

توقفت للحظة، ثم قالت في نفسها بصوت منخفض: "هل كنت جاهزة لهذا؟ كيف يمكنني أن أستمر دونك ياوالدي"، ثم أغمضت عينيها لفترة، تتنفس بعمق، وكأنها تستجمع قواها لملاقاة هذا الابتلاء الذي اختار القدر أن يضعه في طريقها.

في منتصف أحد ليالي كانون استيقظ والدها على ألم شديد في صدره لم يكن ليهدأ أبدًا أدى به إلى الذهاب للطبيب ليخبر والدتها أنه يعاني من احتشاء في العضلة القلبية وبحاجة قصوى للدخول إلى المستشفى وبعد إقناع والدها بضرورة الذهاب بدأت إجراءات المعالجة التي كان يرى الطبيب لافائدة منها إلا المحاولة التي عساها أن تنقذه لتجهش طويلًا بالبكاء قائلة أين أنا الآن وماالذي يحدث بداية لم تستوعب الأمرأحست بالضعف الذي أفقدها التوازن الجسدي لم تنسى ابدًا لحظات الأمل تلك التي جعلتها تتبع الطبيب لتخبره أنه باستطاعتهم أخذ والدها إلى أي مكان بالخارج للعلاج ليرد عليها أن وضع والدها حاليًا لايسمح له بالانتقال ابدًا وكأنه يقول لها لافائدة من أي شيء لتلجأ حينها بتلك الدموع إلى الله متوسلة قائلة إنه والدي ياالله ولن أقول إلا مايرضيك؟

لم يتبقى زاوية في ذلك المستشفى إلا وجلست فيها تبكي حتى التعب لتعود إلى سرير والدها وتجلس عند قدميه تنظر إليه ثم تخبره أن وضعه الآن مستقر وسيكون غدًا أفضل بإذن الله وسوف يعود قريبًا إلى البيت، في اليوم الثالث طلب منها والدها الجلوس لتسمعه دون أي تعليق منها إلا حينما يطلب هو ذلك، حدثها وقتها عن مقدار حبه لها وثقته بها قائلًا إن جميع أخواتك الآن أصبحن على خطوات التخرج من الجامعة ولم يتبقى سوى أختك الصغيرة في مرحلة الثالث الثانوي ويجب أن تُكمل دراستها لتسجل في الجامعة وبهذا تصبحن جميعكن يمتلكن مستقبلًا يليق بكن، ياابنتي لم أثق بالمال يومًا لذا سعيت بكل ماأملك لأجعل من العلم سلاحكن الأقوى في هذه الحياة لتقاطعه مسك معتذرة ولماذا هذا الكلام الآن ياوالدي ؟ قائلًا انتظري ياابنتي قليلًا ثم تابع حديثه بعين دامعة أريد منك أن تكوني بجانب أخواتك وأمك فأنا أثق بعاطفتك السخية ولذا أوصيك بهن وإن فارقتكن فقد جعلتكن في أمان الله وحفظه لتنظر إليه نظرة معاتبة وكأنها تقول لماذا ستتخلى عنا ألم تعدنا يومًا أن تبقى بجانبنا دائمًا ؟

تركته حينها وخرجت مسرعة لتجلس في أحد أركان المستشفى تبكي وترجو الله بالدعاء لينقذها بالصبر عساه يهدأ ذاك الألم الذي بات يشتعل في أوصال روحها ، شعرت حينها أن هناك أيدي وضعت على كتفيّها تهدأ من ذلك الارتجاف الذي لم يكن يفارق أصابع يداها، فيهدأ من ذلك الخوف في أعماقها محدثها عن تلك الآيات التي كانا قد حفظاها

سويًا هي وو الدها فقد كانا في تنافس لايهدأ على حفظ القرآن الكريم والغوص في أسرار معجزاته معترفًا فيها بتفوق الطالب على أستاذه صحيح ذلك يامعلمها الطيب ولكن لولا إخلاصك ونقاء ضميرك ماكانت الآن مثمرة على أغصان علمك الواسع آيا والدها ومعلمها كم هي ممتنة لله بأنها ابنتك، مكث والدها في المستسفى ثمانية أيام كانت كفيلة بإصابتها بالجنون لولا رحمة الله ليودعها صباح الجمعة بابتسامة تعلو ملامح وجهه الذي كان يشع أنوارًا تضيء على من حوله بحسن خاتمة تبشره بجنة عرضها السموات والأرض وتأبى الوقوف على صرخة آيا والدي استعجلت بالرحيل فمازال العمر يهب وصف رزانته بالشاب النبيل، في هذا المساء ستكون

وحدها فالحوار مختنق على مشارف الدموع والليل يخيم على طاولتها بصداقة من نوع آخر وصوتها يستجدي حروفه بأغلى الأثمان أما صورته فهاهي تراها بين نجوم السماء تعدها باللقاء.

رحل والدها في عمر مبكر لتمكث طويلًا على فراش المرض بصمت يحاور صوره على تلك الجدران التي باتت تئن معها وكأنها تشفق على حالتها تلك فبعمق إيمانك يحلو للألم أن يرسو على ميناء الابتلاء أيامًا مضت كانت تشعر بها أنها فقدت روح الحياة ليحملها القرآن بأجنحته النورانية واعدًا الصابرين باللحاق في الأحبة في جنان الخلد.

إنها وصية والدها ومن أين ستبدأ؟ نهضت مساء ذلك اليوم وكأنها تخرج من بين ركام مثقل بالظلام وجلست بجانب أمها لتتكلم مع أخواتها عن عبق حديثه الذي تركه أمانة ترجو بالمحبة لا بالامتنان أن يُكملوا مسيرته لتبقى أوراق التضحيات التي بذلها من أجلهم مخضرة تعاهدوا في تلك الليلة على الوفاء ليبقى اسم والدهم كما ألفه الجميع مشرقًا كابتسامة القمرمتوجًا بست نجمات تضيئهن إمرأة بقداسة دعائها وطهارة قلبها.

يفتقدك الوعد أيها الوالد النبيل وتلك الجديلة التي طالما أحبتها زينتها اليوم بعطرك ولمسات دعائك لترافقها روحك الطاهرة.

يالثقل تلك الأيام التي كانت تمضي ويالغرابة ذلك المنزل الذي يخلو من صوت والدها لكنه يعبق بالخير الذي يؤنسهم بوجوده في صباحات عيد يمطر بذكرياته على عيون أضحى الفراق يسلبها بريق السعادة فيه، الله أكبر على يوم ليس فيه والدها آه أيها الرجل النبيل لو تعلم كيف تبكيك قلوب الكبار التي ضنت أنها دون عيد هذا العام وتنتظرك لهفة عيون الصغار فرحًا بماتحمله يداك السخية لن يكون والدها بطيفه الملائكي حاضرًا هذا العيد لكن ستبقى أكف الخير التي غرسها تزهر في كل عيد. تسقيها بنان أمها التي كانت تلامس سعادة والدها الكامنة في إدخال الفرح لقلوب كانت تنتظره في صباح يوم العيد فكم آمنت أن تلك التجارة التي أقامها والدها مع الله كانت سببًا في توفيقهم الدائم. أرجو الله لك جنات النعيم أيُها الوالد الطيب فقد تعلموا منك كيف تُغتال القسوة بنبضات الرحمة لينقشع لمعان الأمل في عيون المتعبين.

الفصل الثامن

"موعد مع الغياب"

لم يتبقَّ سوى بضعة أشهر، وستُعلن نتائج المرحلة الثانوية، التي كانت قد علَّقت عليها آمالًا كثيرة بجهدٍ مضنٍ. كانت منتظرة ذلك اليوم بشغف، يومًا ستبعث فيه لوالدها برسائل سماوية تخبره بما كان يرجو. "أبي، لقد فعلتها! سجلت أختي الصغيرة في كلية الطب البشري تلك الكلية التي كنت ترغب أن تحمل أختي الصغيرة اسمها. فلتكن هذه شهادة نجاح أخرى لكَ، وتأكيدًا على وصاياك التي تملأ قلبي".

مرَّت الأيام، وكأن خطواتها تسير فقط من أجل الإنجاز، لكنها لم تترك بصمات الفرح على تلك الأدراج التي ألبستها أثواب السعادة، مرصَّعة بلآلئ النجاح التى تزفه كل يوم بلون جديد. "ماذا بعد؟ كيف سيمضي ذلك اليوم ياأبي؟ وكيف سأبدوا من دونك؟ هل علي أن أنظر إلى مقعدك الفارغ بنظرات الفخروالامتنان أم الشوق والحرمان؟ كانت هذه الأسئلة ترافقها، لكنها لم تجد لها إجابة.

وكان الموعد المنتظر قد اقترب. "موعد مناقشة الأطروحة"، ذلك اليوم الذي طالما حلمت به، لكنَّه أصبح الآن يحمل بين طياته مرارة لم تكن في حسبانها. إنه الموعد الذي أنهت فيه آخر أوراق أطروحتها،

وجميعهم بانتظارها على تلك المدرجات ، لكنك أنت، يا والدي، الذي لم تعد بيننا، أليس هذا الإنجاز الذي طالما حلمت به .

تخيلت كيف ستكون ردَّة فعلك لو كنت هنا: "أبي، كل تلك الساعات التي قضيتها وأنا أراجع، كل كلمة كتبتها وأنا أبحث، كانت تقصد رؤية الفخر والسعادة في سماء أعينكم. ". ثم تذكرت ما كنت تقوله دائمًا بابتسامتك الهادئة: "لن تكوني أبداً وحدك، حتى في أصعب اللحظات."

في ذلك اليوم ، كان المقعد الفارغ يرمز إلى غيابك. "يا والدي، أضع باقة من الورود البنفسجية عليه، تشبه دفء يديك ومبسمك المتواضع، لتلقي التحية بإسمك على الحاضرين".

فوق ذلك المقعد، كان طيفك يبتسم وكأنك هناك تهمس: "أنتِ دائماً أقوى من كل شيء، مهما كانت الصعاب". وكأن قلبها، الذي امتلأ بأوجاع الفقد، كان يتنفس الصبر منك.

"أبي سيبقى اسمك على صفحات كل إنجاز، أعدك . كم كنت تقول لي: 'أنتِ لستِ وحدك أبدًا، الله لايخذل من يثق به'".

وهي في تلك اللحظة، كان عليها أن تعقد صفقة اتزان مع غيوم الحياة التي كانت تظلل طريقها. "أي ابتلاءٍ هذا الذي طرق أعماق قلبي؟ كيف يمكن للروح أن تعيش بين الفرح والفقد في نفس اللحظة؟"

لم يكن لها سوى أن تواجه معركتها مع الذكريات والألم، ولكنها، كما كانت دائمًا، مستعدة للمضي قدمًا، مستنيرةً بفخر والدها، الذي كان حاضراً في كل لحظة، في كل خطوة، وفي كل إنجاز تحققه.

الحزن، ذلك الضيف الثقيل الذي كان يرهق ملامحها، يترك أثره على وجهها، ليصل برسالته إلى أولئك الذين خذلتهم الظروف عن ملاقاة طموحاتهم على أبواب مستقبلٍ رسموه بالأمل والمثابرة. رغم كل ما عصفت بهم تحديات الحياة، كانت تعلم في أعماق قلبها أن هناك شيئًا واحدًا سيحملها، وهو رعاية الله التي كانت تلتئم بها الجراح وتبني جسورًا من الأمل. "كل شيء سيصبح أفضل، فقط عليّ أن أستجمع قدراتي وأواصل المسير رغم الألم". كانت هذه كلماتها التي ترددها في نفسها كلما اعترضت طريقها مصاعب الحياة.

انتهى ذلك اليوم بإنجازٍ عظيم. يوم تفوقٍ يحمل في طياته كل السلام لروح والدها الطاهرة. "الحمدلله يا أبي، ها هي براءة الاختراع الفكرية بين يدي، أتمنى أن أكون قد جعلتك فخورًا". نالت بفضل الله ذلك الإنجاز الذي يشهد لتميز عملها، ليكون بمثابة شهادة من حياتها للجامعه التي قدمت لها كل الدعم.

كما كانت جامعتها تشهد لذلك العمل بالتميز كانت هي تهديها الشكر والعرفان على رعايتها له، عادت يومها إلى المنزل ترافقها ابتسامة أمها وسعادة أخواتها التي كانت ترى فيهن عطروالدها عندما تجلدها أوجاع الفقد على أوتار الحنين، حيث كان تعلق أخواتها الشديد بها يضيف على عاتقها مسؤولياتٍ آخرى وكأنهن يرون فيها ذلك الأمان الذي كن يشعرن به بوجود والدها وأكثرماكان يؤلمها بالمقدار ذاته الذي كانت ترى فيه حسن تربية والدها تقديرهن لتلك المسؤولية التي تحملها والتي كانت تراها واجب عليها قبل أن يكون إخلاصًا لثقة والدها بها والحقيقة أن كل واحدة فيهن حملت الوفاء له كما أراد بل أكثرمماتمنى فالحمد لك وحدك رباه حمدًا لاحدود له.

في تلك اللحظات، لم تكن تدرك هل كانت هي التي تعبر الأيام أم أن الأيام هي التي كانت تعبرها. فقد كانت، بعد وفاة والدها، أشبه بمغتربة تبحث عن شمس وطنها رغم شروق الصباح. كان الليل، رغم نوره، يثقل قلبها ويزيد من قسوة وحدتها. "كيف سأحتمل هذا الألم؟" كانت تردد تلك الكلمات في قلبها، بينما تضجرت الليالي المقمرة من تلك الصداقة الهادئة التي اجتاحت عالمها، لتتبادل معها دموعًا، تبحث عن صدى صوته في زوايا ذلك المنزل الفارغ.

كانت الجدران، التي طالما احتفظت بصمته، تستحضر صورته في كل زاوية. والمرايا، التي كانت يومًا تعكس ابتساماتهم، أصبحت الآن مجرد أداة لاحتساء صمتٍ مملوء بالفراغ. "أين أنت يا أبي؟ هل تسمعني؟" كانت تسأل نفسها كلما نظرت إلى تلك المرايا وكأنها ستجيبها بشيء من الحنين.

لتتبادل الجدران الأدوار مع المرايا، كانت تراقب تأملاتها التي حاولت أن تبلسم الصمت، عسى أن يغفو قلبها، فيغفو معها الحزن ولو للحظة. فبقدر ماكانت مدانة له بقدر ما أصبح هو الآن ، مدان لذلك الكلام الصامت الذي كان يبحث عنه بين جدران هذا البيت، في تلك الزوايا التي احتفظت بجميع لحظاته.
ولأول مرة، حاولت الهروب بنفسها عن تلك الذكريات. غادرت مزاجات الحزن تتناثر في أرجاء حقائب الكتب والمكتبة التي كانت تمثل لها مأوى من الألم. "هل سيكون الابتعاد عن هذه الأماكن طريقًا إلى النسيان؟" كانت تسأل نفسها، وهي تبحث في رفوف مكتبتها عن أي كتاب قد يساعدها في الهروب من ذاتها. "ربما إذا ابتعدت قليلاً، قد أخفف عن نفسي عبء هذه الذكريات التي تحاصرني".

كانت تعتقد أن هذا الابتعاد، هذا التغيب عن الأماكن التي كانت تحمل في تفاصيلها ذكرياته، سيخفف من وطأة الحزن. لكن مع مرور الوقت، كانت تدرك أنها لن تتمكن من الهروب من الألم أبدًا.

الفصل التاسع

طيف لم تعتد زيارته

في إحدى الصباحات، حيث كان يوم عطلتها في الجامعة، لاتدري كيف خطر ببالها ذاك الشاب، على الرغم من أنها لا تعرف عن أخباره شيئًا، سوى أنه قد سافر منذ تخرّجه من الجامعة. فجأة، قررت أن ترسل إليه برسالة قائلة له:

"طارق، أحتاج مساعدتك في تأمين عقد عمل، حتى أتمكن من إجراء الأبحاث التربوية التي طالما حلمت بها."

لم يتأخر طارق في الرد، إذ بعث إليها برسالةٍ تفيض امتنانًا لتلك الثقة، وفرحًا بذلك التواصل الذي أسعده أيضًا:

"مسك أشكركِ على هذه الثقة الغالية. أسعدني سماع صوتك، وسأبذل قصارى جهدي للبحث عن فرصة عمل في جامعة تليق بتلك الشهادات الرفيعة التي تحملينها."

لطالما رآها بعين التميّز، ولطالما أبصرت في ذكائه عبقرية لافتة. ومرّت الأيام تتخللها أحاديث قصيرة، لاتتضمن سوى الاطمئنان واستذكار حكايات النجاح التي جمعتهما في مقاعد المدرسة، وبرغم قِصرها، كانت تحمل بين طياتها صمتًا عميقًا، يعبر بشراعات خفية تلامس مشاعر الحب، تستجدي البوح، لكنها لا تتعداه.

ليروق لهما ذلك الصمت على حافة الكلمات، كما لو كان اتفاقًا غير معلن، أو لغةً سرية لا يفهمها سواهما.

لكن، ما الذي حدث حتى يزورها الانتظار كطيف لم تعتد زيارته؟

لتراودها حينها تساؤلات لطالما أحرجتها إجاباتها، فاليوم وهي على تلك المنصة أمام الألاف من طلبتها تعود لتبتسم وإن كانت تتأرجح على أوتار الأنين ترجو الثواب صبرًا على فقد والدها ولكنها تعدها بمساء تسمع فيه صوت ذاك الشاب الذي يحمل عبق الطفولة وحكاية التميز التي لاتزال تستفيق في أوراق الماضي ، هل باتت تنتظر انتهاء محاضراتها الجامعية لتعود إلى ذلك المنزل بخطوات يُجملها الحنين لذلك الحديث أم أنها في الحقيقة لازالت تنتظر جوابًا عن عقد العمل الذي طلبت؟، أيامًا قليلة تلك التي مرت على ذلك الحال .

شعرت حينها أنها تحمل جبالًا من الحب ولكنها تلك الفتاة الشرقية التي لايروق لها البوح دون أن يُطرق باب والدها ، دون أدنى شكٍ بفعله لذلك فهو ذاك الشاب الذي نشأ في بيت تُنكرها مهاراتها لإكرام وصفه فقط تستطيع القول أن الرياحين تستعير أجنحة أخلاقه للتباهي بها وأن الملائكة أغدقته بالآمان حين زرعت فيهم كل تلك العبقرية فلازالت تتذكربريق ذلك الفخرالذي كان يملئ عيون والدها في حديث دار يومًا بينها وبينه عن تلك العائلة عندما عبّرت أمام والدها عن إعجابها بذكائه حينها حيث كانوا طلبة على مقاعد المرحلة الابتدائية .

في ذاك الكم واتساع المدى، أضحتْ به أشبه بفراش وجد النور ليحكي له عن قسوة الظلام.
للمرة الثانية يوقفها الفكر مع ذلك الشاب ولكن هذه المرة على ركن الحب الذي بات مهجورًا منذ نسجت على بابه ترانيمًا لاتتقن اللحن سوى عزفًا على أوتار العلم التي راق لها أن تغازل به اتفاقًا مع محطات الفكرفي نزهة العقل وجنون الإبداع التي مرعليها زمنًا دون الرفيق الأمين لتبدأ تلك الرواية متغنية بفيض الآمان كبنفسجًا يفترش ملاذ روحها دون ميعاد.
صراع عابق مابين أسئلة وإجابات ليحط بريق ذلك الكبرياء المفتون بلون عينيه وعقبرية طفولته عند صدى صوته بالتحديد أيامًا قليلة عبرت بها معه فيا لذاك الحنين كم عبث بمساءات أوراقها ينتظر حروفه وبالتلك الحروف كم أوقفتها على محطات روحها لاختراع مداد الإعتراف خلف ستائر الانتظار تلك، لتغزل بها أحاديثًا تختبئ بعيدًا عن ناظره منكرة شوقها لتلك الدقائق التي تعبق بصوته، صوته الذي أضحت تتعافى به من تلك الليالي الثقال وكأنه يبلسم المقال على أوراق منضدتها ليستفيق

الحنين المتأرج على سلالم اللغة فيها عوضًا عن ذاك الألم العابث بإتزان أبجديتها.

برغم قصر تلك الأيام إلا أنها عبثت بأوردة الصمت المهجور لتغني مرة أخرى للحياة فيها ، فما عاد الخوف يتسلق جدران روحها دون والدها ولا الليل بات يفتقد أنوار شموعه المطفأة منذ رحيله.

وحده ذلك الشاب من استطاع أن يبرأ الأيام من مواقيت الحزن عندما كانت تنفذ خيوط الأمل من عيون الأحلام على الرغم من صلابة ذلك الصبر المسكين.

يا لعواطفنا الرقيقة عندما يقسو عليها الفراق دون إنذار كيف تغدو في حضن الوطن تبحث عن وطن.

الفصل العاشر

بين الصمت والذكريات

في أحد المساءات، وفي لحظة لم تكن تتوقعها، حدث ما لم يكن في الحسبان. كان حديثًا عابرًا بينهما، لكنه كان يحمل في طياته ما لا يمكنها تحمله. كيف لذلك الكلام العابر أن يترك في نفسها هذا الوجع؟ وكيف لهذا الموقف أن يزعزع توازن قلبها؟ لم تكن تعرف سوى أنها كانت غاضبة، ولا شيء سوى الغضب الذي يتغلغل في أعماقها. في اليوم التالي، بعثت له برسالة، كلماتها كانت واضحة وصريحة: "سأكون بخير من دونك."

لا جواب، لا إشعار، لا شيء سوى صمت أطبق عليها، وجعلها في دائرة من الأسئلة التي لا تنتهي. ما الذي كانت تنتظره حقًا؟ هل كانت تأمل أن يعتذر؟ أم أن كبريائها كان قد قرر أنه لن يكون مبتسمًا ثانية لطيف عينيه الجميلتين.

ثقيلة تلك الأيام التي مرت مضيفًا الصمت فيها على حياتها طيفًا جديدًا لم يكن بالحسبان، انتابها حينها ذاك الشعور المؤلم الذي يستجدي سماع رأي والدها حتى تكون بخير أخذت تطوف بين قوائم أقواله الحكيمة التي كانت قد وثقتها على مر الزمن في ذاكرة أضحت الآن تترجم لها بصدى صوته مايعيد ترتيب بعثرات فكرها إلى مقعده الآمن هكذا كانت تفعل كلما تعثرت بها الخطوات.

ثم همست بصوت خافت، وكأنها تكلم نفسها:

"يا والدي، أين أنت الآن؟"

صببتْ ماتشكوه دون تحفظ على أوراق مذاكراتها كآخررسالة له كانت بها ترافق كبريائها تارة وأخرى تصف ماتعانيه فلا الكبرياء أنصفها ولا الصمت أزاح ثقل تلك المعاناة ، أيا أنت:

"طوقتْ روحها بألسنة النسيان لتمنح الزمن سلام عبوره وفق رؤية القدربعد أن أرهقها غياب زمن تلك الرسائل المسائية عندما أصبح بريدها فارغًا من حروفك، إنه الحب عندما يعبربدون ميعاد أعماق الروح دون أن تجد إجابة واحدة تنقذ ذلك السؤال المترامي على مبررات الاختيارأو بمعنى آخر إنه أنت رمز تلك الروح التي غدوت تملكها بعد أن عبرت بها بأشرعة الفكر والحب شواطئ الآمان المظللة بلون عينيك يقولون إن الحب يغتال فينا خياراتنا أو ربما يجتزئ منها وهذا ليس صحيح فالحب الصادق أن ترى جميع تلك الخيارات التي تحلو لك في ذلك الشخص."

وماذا عنه بين أشرعة ذاك الغياب ألم تعترف أوراق مذكراته بتلك الحروف التي غمرتها مرارًا بالابتسام متأرجحة بها كاعترافٍ يخلص لذكريات تلك الأيام لتعيد قرائتها مرات ومرات فذاك ماكتبت يداه:

في رحلتي كم تيقنت أن الوقت متواطئ مع المشاعر البائسة في تعذيب الروح وفرحها فالسعادة والأمان والنشوة لحظية أما الحزن والندم والشك والكبت يتجاوزون حدود الوقت فهم على صداقة دائمة في استنزاف الروح إلا الحب يسرق الوقت ويشفي الجسد حتى الانتظار فيه متعة لترميم الروح هل ياترى الحب هو إكسيرة البقاء والحياة؟ أم نافذة الأمل للغد ؟ أم هو ديمومة الثقة بالوجود؟ سبب من أسباب الصفاء في داخلي تجاوزتُ فيه ماكان قد فات وسامحتُ حتى استعدت النقاء... أنتِ يا سارقة للوقت.

فلا تبحث عن الحرية؟ فالقسوة هي أن تعتاد الرحيل وحيدًا تمتلك قوة البعد ولكن شيء عميق في داخلك يطوف سريعًا مع أول ليلة باردة ترسم في جسدك القشعريرة ، تبقى هاربًا حتى يسود الصمت ويأتي الليل وتخونك عيناك في شحن الذكريات"

آيا والدي أدركتُ أنَّ الفقد لاتنسيه الأماكن ولا تهرول به ثواني ؛ بل بالصبر والرضا تُنسج أثواب التناسي.

مضت عدة أشهر، ومسك تواصل عملها كالمعتاد، لا يُؤنسها سوى الابتسامات التي ترتسم بالحب على وجوه طلبتها، والقراءة، وكتابة مذكرات أيامها التي كانت ترويها عند زيارتها لقبر والدها كلما كسرتها الذكريات. هناك، تحدثه عن تفاصيل يومها، حاملة في راحتيها أخبارها، وذاكرة الماضي التي طالما توسلت إليها أن تعبُر بطيف يرحم ما تبقى على أجفان أثقلتها دموع غيابه، وحاضرها في لهفة أحلام عاهدته عليها، وكيف أنجزتها، عابرة بانتصاراتها فوق جروح الغصة التي حفرت آلاف التنهيدات بين حنايا فؤادها في كل مرة تجر بها توقعيها بعنوان: "وأوفيتُ بالوعد يا والدي". فقد سألها الوعد، لأنه كان يثق بأنها لن تخون الأمانة، حتى وإن ظلمت نفسها. كان على يقين بأنها ذلك المزيج من القوة والضعف، الحزن والفرح، الذي لا يُقهر.

ذلك الذي يشبه نُبل الإنسانية، وتفوح من أعماقه رائحة الحب والعطاء اللامحدود، تمامًا كما كانت تراه هي بعين مغموسة في الحنين،لينتهي يومها بهمسات الدعاء كان أكثر ما يؤلمها في غيابه هو ذلك الخوف الذي يتسلّل بين خطواتها بصمتٍ موارب، عجزت عن إيجاد تفسير له سوى أنها لم تَعد تراه في محطات يومها، فتتبرأ من هذا الخوف بصحبة القرآن الكريم، الذي يُطمئن قلبها ويُريح أنفاسها المرتجفة، وكأنها تُضمّد جراح روحها بثلاثين جزءًا من نور، وتلتحف بوصايا الله التي تنير لها دروب العتمة.

كانت كلما قرأت، رأت ضعفها سموًّ ا في كتاب الله، وقوةً تستمد منها دفئًا، يُذيب برد كانون القارس الذي سكن أوصالها مذ زارها بثوبه الذي لم تألفه من قبل.

وهمست في دعائها، ترفع كفّيها المرتجفتين بخشوع:

– ربّاه، تقوّى على تقوّى، ارزقني بها طمأنينة خليلك، وصبر كليمك، وشفاعة مصطفاك.

لم تَمَلّ "مسك" من الإصغاء لهمسات بريدها، رغم أن صندوق الرسائل قد فرغ من كلمات والدها، إلا أن روحه ظلّت تعبق بين السطور، حاضرةً في غيابها، صابرةً على أوجاع الصمت الذي بدأت تتعايش معه بسلام. ففي كل مرة تشعر بظلال طيفه تحوم حول روحها، فتبتسم كأنها تراه.

هاهي اليوم تحمل شوقها وتسافر للمشاركة في مؤتمرٍ تعليمي تمثّل فيه جامعتها، تحمل معها ذكرى حضورٍ أبديّ لحنانٍ لا يموت.

أيقونة الروح

الفصل الحادى عشر

طيف حديثه

وماذا عن طارق؟
هل تراه قد علم بأنها سافرت؟
كانت على يقينٍ تام أنه لن يتوانى عن الاطمئنان عليها، حتى وإن بدت شِباكُ العتاب متعاطفةً معه، فتحجب صوته عنها، وتمنع إطلالته من الوصول.
كم آمنت تلك الفتاة أن الحب النبيل عطاءٌ لا ينضب، سيدوم عبقُه في قلوب الكثيرين، فيتناقلوا حروفه بذاكرةٍ ملؤها المسك.
ولكم أيقنت، أيقنت حقّ اليقين، شعور فراشةٍ تطوف حول سراجٍ كلما طوّقها بنوره الفكري!
وبهمس حائر راحت تحدث نفسها: أما زال طارق يفتقدني أما زلت في ربيع عيناه وذاكرته أم أن للصمت عنده حديث آخر؟، راحت تحدث نفسها:
- "هل يفتقدني كما أفتقده؟ هل ما زال صوتي يسكن صمته؟ يا طارق... لماذا كل هذا الصمت؟"
تردّد صوت طارق في خيالها، كما لو كان يخاطبها عبر الفراغ
- "لم يكن الغياب اختيارًا، بل اختبار... وها أنا هنا، أكتب إليكِ دون حبر، وأصغي لصوتك في كل نسمة غروب."

بعتاب الغياب، وصحوة الصمت، وعلى منضدة الفكر، التقينا مرة أخرى...

هكذا خطّت حروفها وهي تغمرها ابتسامةٌ شائقة لذكرياتٍ لم يغفُ الحب يومًا بين طيّاتها، فحملتها أنوارُ شموع ذاك المساء إلى أوراق المقال الأول...

هناك، حيث كتبت عن صمتٍ يحمله في أبجديّة حروف الحب، وعن سحابةِ شوقٍ ترافق نبضاتِ الوقت، علّها تلتقي صوته عند مواقيت الغروب.

تمرّدت أحيانًا على ذكريات حديثه بين أوراق أيامها، فتمرّد الحرف عليها، وتمردت لغتها على أعتاب الزمن...

لكنها، ما لبثت أن عادت، لتكتب عنه من جديد.

كتبت حينها الكثير... الكثير...

حتى لم يعد للكثير متّسع.

فاكتفت، عندئذ، بمرور طيف حديثه في طريق كل العبارات.

"أنا بخير، كيف حالك أنت، يا سيدي؟"
هكذا بدأت رسالتها، تكتبها على استحياءٍ بنبضات شوق للقاء صوته، رغم أن صوته غاب طويلاً، وغابت معه كل رسائله.
لم تستلم منه أية رسالة طيلة تلك الأيام التي مضت.
نعم، صحيحٌ أنه أخبرها قبل آخر مكالمة هاتفية بينهما أنه مشغولٌ بما يكفي في تلك الغربة التي أطال بها إقامةً خاليةً من أحلام العودة.
همست لنفسها قائلة:
- "نعم تستحق عبقريتك أن أعفيك من ارتباك الكلام على محطة ذلك الغياب الطويل الذي كان كجرح صامت ؟"
لم تتذكر حينها بماذا أجابها، سوى أن حديثه كان يتفق تمامًا مع تلك المبررات التي منحته إياها، كمَن يهديه فرصة ذهبية يتفادى بها الغوص في أسباب الانقطاع.
كان وعده حينها واضحًا:
"سأطرق أبواب العتاب كضيفٍ محبّ، ولكن في وقت لاحق."

أجابت يومها، بنبرة خافتة:

"حين تأتي، سأكون سيدة الإصغاء... فقط لا تتأخر."

بدت الدقائق وكأنها تُصافح الصمت الذي مرّ عليه زمنٌ خلف قضبان الكلام، إلا أن الليلة...

يا لها من ليلة!

مقمرةٌ تعصف بأوراق العتاب خلف حضور صوته، الذي غازل شغف فكرها على مقاعد الطفولة، لتتورط به ثانيةً، على حواف نوافذ الحب... دون سلام.

زارها صوته بتحية تقول:

"مساؤكِ نور يارفيقة الفكر، أما زلتِ تكتبين كعادتك ؟

كان يتحدث وكأن صوته ممتنٌ لدقائق الوقت التي منحته فرصةً ليسمع أخبارها، يبتسم لها كعادته، ويُعنون نجاحها في كل محطةٍ بعباراتٍ تصوغها روحه بأسلوبه الخاص...

ذلك الأسلوب الذي يشبه دموع الفرح في عيون والدها عندما تغمره أصداء كل نجاح لها .

ردت عليه ببريق يعكس صدق عيناها قائلة:

- "أنا سعيدة جدًا... لسماع صوتك

حيث عبء العمل وبين ساعاته الطويلة، بدا وكأن أمرًا ما يشغلها، فأدرك هو ذلك سريعًا، ليقاطعها بلطف، معتذرًا، ومطمئنًا:
"أنا هنا، وسأبقى بجانبك على الدوام، ما يهمّني حقًا هو أن تكوني بخير."
ثم أضاف بصوته الذي يحمل كل السلام:
"ابقَي هناك، وواصلي طريقك. أنا فخور بك."

وقد كان بالفعل رجلًا يحمل كلمته كما تحمل الأرض في راحتيها جبالًا ثقال.
كلمته وعدٌ لا يُنكث، وسنده ظلٌ لا يغيب.

في تلك المكالمة الهاتفية المطوّلة، كانت قد حدّثته عن كل ما مرّت به، شاركته أدق التفاصيل، إلا أن تلك الأنغام التي تعزفها نبضات قلبها على إيقاع إطلالة صوته، على حد وصفها دومًا، لم تجعلها تنسى الحديث عن لحظات الاشتياق...
لحظات افتقدت فيها كل صورة من صور والدها التي كانت تزيّن جدران المنزل، رغم أن صورته لم تغب قط عن قلبها.

قالت، بصوتٍ مكسور يخفي دمعًا:

- "أتعرف ياطارق؟ كل نبضة في قلبي تهمس لي أنني ما زلت أسير على درب الحياة، فقط لأن صورته تسكنني."

هي ذات اللحظات التي ظنّت - عبثًا - أن الرحيل إلى مكانٍ آخر قد يكسر جليد الحزن عن ملامحها، أو ربما يُنسيها كيف جردها غيابه من عباءات الدلال التي أفنى عمره وهو يظلّلها بها، أينما حلّ.

تابعت بصوت مغلف بالآهات :

- "كان يلبسني دفئه... أما الآن، فلا شيء سوى أثواب من وحدة وحرمان."

ثم تنهدت، وكأن الحديث قد أثقلها، لتقول:

- "أشتاق لذلك الدفء... دفء يدي أمي، حين كانت تمسك بيدي كل ليلة باردة يغيب فيها أبي."

أمّها التي كانت، ولا تزال، تخيط بالصبر جراحها، وتُمسِك دموعها لتُمسِد بها قلب ابنتها... تمسح بها وجع الليل، وتواسيها.

قالت بصوت أقرب إلى الرجاء منها إلى الحنين:

- "كانت يدها دثارًا أحتضنه حين يشتد البرد في صدري، كانت تربّت على قلبي لا على كتفي، فتطمئنني دون أن تنطق."

ثم صمتت برهة، وكأنها تراجعت إلى دهاليز الذكرى، قبل أن تهمس:

- "أتعلم؟ كل ما أريده الآن هو لحظة واحدة فقط... أن أرى ملامح أبي تبتسم لي عند كل مساء، أو أرى أمي تعد لي فنجان قهوتها المعتادة، كما كانت تفعل كل صباح."

كان ينصت إليها وكأنه يحفظ أنفاسها، لا كلماتها فقط. وحين شعر بثقل ذلك الحنين الذي ينهكها، همس:

"ربما لا تعود الوجوه كما كانت، لكن الأرواح لا ترحل، هو معكِ... بين نبضاتك، في خطواتك، في دعائك"

ابتسمت ابتسامة باهتة، كمن أنهكه الشوق:

- "أدعو كثيرًا، وأعلم أن الله يسمع... لكن الفقد يا سيدي لا يُشفى، إنه يتخذ شكلًا جديدًا في القلب، لا أكثر."

رد عليها بصوت حانٍ، يحاول أن يمسك بشتاتها:

" ثقي يامسك أن كل لحظة تصبرين فيها ... وكل لحظة تصبرين فيها، تبنين جدارًا يحميكِ من الانكسار."

كانت تلك الليلة كأنها قُدّت من صدق... من حنينٍ يشبه الوعد، من حديثٍ كُتب في دفتر الغياب، لكنه يُقرأ كلما اشتد الألم.
وفي قلبها، كانت تشعر - ولو للحظة - أن الحديث معه يشبه العودة المؤقتة إلى حضن كانت تظنه لن يعود.
يبقى هناك من يشبهون من رحلوا من هم بقية من دفئهم .

الفصل الثانى عشر

" بين سطور الذاكرة"

دموعها كانت تُمسَح بكفّي أمّها الطاهرتين، فيما تجلس مع أخواتها حول مائدة الطعام؛ هناك، حيث كل واحدة منهن تختلس النظرات إلى مقعد والدهنّ الخالي، نظراتٍ لا تحمل سوى الحزن، كأنّ في أحداقهنّ سماءً رمادية لا مطر فيها سوى الصمت.

كانت تتعمّد زيارة الفرح على أبواب الذكريات؛ ذكريات أحاديث والدها العطرة التي ما زالت تعبق في الزوايا كأنها لم تغب قط.

وأما عن حارتها، فللشوق هناك حكاية أخرى، ترويها وجوه البائعين النقيّة، التي كانت تُخجلها تحياتهم المُفعمة بمسك الاحترام والتقدير عند مرورها في صباحات الشتاء الباردة.

أما ماتناست أن تخبره به، فهو كيف عبث غياب طارق بألوان شمس المغيب، حتى أصبحت خيوط الصباح تساومها على نسيانه. كانت تلوذ بروحها كل مساء، تحت أضواء الشموع التي تحرس ليلها، ذلك الليل الذي ائتمنته على بوحها، حين حاصرها الصمت بين خيوطه السوداء، فشكت إليه لينصفها قائلة:

- أيّها الليل...

يا صديقي الذي يعبر بي حدود الزمان والمكان بتذكرة الأبجدية، لقد التقيته في النصف الآخر من الفكر، كأنه مقال استثنائي على أحداق المعرفة، و بين ألوان القلب، كأنه لغة أنيقة لا تشبه سوى لغة الروح... تلك التي لا يملكها سواه.

لم تكن قد نسيت، وإنما تناست. كانت ما تزال تعانق كبرياءها برحيق شرقيتها، حتى وإن...

نقش الحب في ذاكرتها حكايات انتصاراته، تلك التي راقصت شعور العاشقين على نغمة يقين دستويفسكي حين قال:

"أتعلمين يا ليزا، إن الإنسان يُعذِّب الإنسان لمجرد أنه يحبّه حبًا صادقًا؟!"

أما هي، فما راق لها ذلك أبدًا؛ إذ لم تقسُ يومًا على الحب، فكيف تأذن له أن يقسو عليها؟! لذا، فهي لن تستجدي نسائم أشواقه، ولن تقف على أعتاب أيلول لتحاور أيامه، بل ستكتفي بأن تهمس في سراديب الاعتراف:

"ظننت أنني أحببت يومًا، ولكن بعض الظنّ إثم.."

يا لقداسة ذلك التناسي الذي يلتمس لها كل العذر، حين آمنت أن الحب هو لغة الروح؛ اللغة التي لا تتيه أبدًا، حتى وإن مرّت بين أوجاع الحياة وانكسارات الأيام.

أنهت يومها بتلك المكالمة، لتبدو إضاءة الهاتف كأنها تلتقط صورًا تذكارية لارتباك ملامحها؛ ملامح بدت وكأنها تلمّ شتات صدى صوته، خجلًا من ليلٍ منحها الأمان، لتخاطب طيفه بلغة شعورها، دون أن يراقبها أحد، هناك... وحدها، بين ستائر حروفها.

كم كان يحلو لها أن تبتسم خلف تشتّت يعتصر أبجديتها آلاف المرّات، وهي تكتب في أوراقها السرية:

"ماذا لو علم؟ أن الحب يعصف بغفوات قلبي كما تعصف الرياح بورق الخريف؟
أتراه سيدون ارتباكي بصمته ؟ أم أنه فقط سيقرأه كأنه رسالة كتبها الغياب بخط قلب يثق بأنه لايحب سواه.

حين تلوح مودعة قطرات المطر، وتبقى الأرض تئن تحت وقعها، تعصف الذاكرة بمشاعر دفينة، تلك التي لا تعبّر عنها الكلمات. كان أسمى الأسرار التي تخفيها عنه هي تلك السعادة التي منحها إياها"ذلك" الحب، دون أن تجد تفسيرًا لها سوى تلك اللوحة التي تظلل فيها أزهار البنفسج أوراق الخريف، وكأنما أرادت أن تقول:
"حيثما ترحل بي الطبيعة، ألتقي الربيع ثانية في عينيه."

في ظل غياب نسيانها ولقاء تناسيها، أطفأت شموع تلك الليلة، لتخبئ ضوءها لأحاديث يوم غد. هي على انتظار لذلك اليوم، وإن كان دون ميعاد. لكنها على يقين أن صوته سيضيء مساءاتها، دون أن تغتال المسافات لمعان الفرح في عينيها. كانت تصف حضور صوته بلون أزهار الخزامى التي تنبت في أعماق روحها، لو جاء يختال زائرًا بين أروقتها.

لا تختاري الحب، سيدتي، لتملئي فراغ قلبك، أو كمنجاة لعمر يعبث الآخرون بحقيقته تحت مسمى تقاليدنا الاجتماعية. بل اختاري لفكركِ رجلاً يعانق منابع الثقافة فيه بشغف عبقريته، كما يعانق الإلهام بلاغة المقال، ولقلبك حبًا كجبل ثابت، مهما حاصرته العواصف، تركني إليه بإطمئنان.

على خاصرة الغربة، وبين أطياف الاغتراب، كانت تودع الشمس على نوافذ أمنياتها، وكأنها ممتنة لها بالرحيل لملاقاة نسائم حديثه الذي أدمنته، كإدمانها رائحة الكتب في أنفاس أيامها.

كانت تنصت للأيام وكأنها تغرد لها على أغصان المقال. وكم كانت تقف طويلًا عند ردوده التي باتت تحفظها عن ظهر قلب، مطالبًا إياها بالتعليق. قائلًا لها:
"أنا في انتظار الرد"

فتترك خلفها كل ما يأخذ حيزًا من وقتها، وتركض لمعانقة حروف أبجديتها، بهمسات شوق في صوغ مقال جديد، تُتقن فيه فن الرد كي تتورط مرة أخرى لو بعث إليها محاكيًا الإبداع عبر أجنحة الفكرالأدبية.

في برهة من الزمن، ينفلت صوتٌ عميق إلى أعماقها، "اشتقت لكِ، كيف مرت كل هذه السنين بنا يا مسك؟ كيف أننا لم نلتقِ حتى وإن كانت صدفة عابرة؟ أين كنا من تلك الأيام التي أمضيناها بمفردنا، نصارع طموحاتنا بعزيمة لا تتوقف؟ كنا نواجه آلاف التحديات، مبتسمين لغدٍ، مهما كان صعبًا، مادام فكرنا يُوقد شموع الأمل لتحقيق أمنياتنا. وكلما لاحت خيوط العمر البيضاء في رؤوسنا، تذكرنا تلك اللحظات."

أما الآن، ومن لحظة لقاء، شغفنا بسفينة النجاة من معاناة الأيام، والإبحار بنا إلى ذكريات نعومة أظافرنا، والعودة لاستعادة تلك الطفولة التي أضاءتها شمس الحلم، لتعدو بنا بأمواج المعرفة من جديد. "لنستعيد هدفنا النبيل ببناء جسور الفكر والإبداع والطموح، كما تقاسمنا اعتراف تميز كلانا في طفولتنا.

"دعي العتاب جانبًا. كثيرًا ما أضاع اللامقصود أحلامًا كانت تُسقى بعطر البراءة ونقاء العفوية. كثيرًا ما ظلمنا تلك الأحلام في وقت كانت تغنيها مشاعر العشق التي رسمناها بحروف الأمل، دون حساب لما وراء الكلمات."

"دعيه يا مسك، كي لا يسرق منا المزيد من الوقت ودعيني."

"دعيني أحدثكِ عن بعض مما فيّ، عن كل ما فيّ. عن طفولتي وأحلامي، عن كل مافاتني من دونكِ، وما تبقى. فقط معكِ تحلو الحياة، بعيونٍ لا تعرف الرمادية. فقط معكِ يُعاد إليّ ما فات."

لم تكن مسك تمتلك أية حواس أخرى بل كانت تمتلك إحساسًا مرهفًا يفوق الخيال صادقة واضحة عاشقة للذكاء والطموح تهوى الإبداع غارقة في عشق القراءة تحب الهدوء واللطف والرقة والبساطة في التعامل تكره القسوة واضحة في تواضعها كضوء الشمس معطاءة دون حساب أو انتظار للمقابل ولو سألتها عن أثمن ماتملك لأجابت الكتب دون أدنى شك .

كانت تلك هى لحظاتها المفضلة، حيث تجلس في صمت تام، عيونها تائهة بين الصفحات، وعقلها غارق في الأفكار التي لا تنتهي. تجلس مع كتابها ليلاً، مودعةً له عند صوت الأذان، تقول في نفسها:

"الله أكبر... الله أكبر... لا شيء يضاهي سكون الليل إلا كلمات هذا الكتاب."

كان الكتاب دائمًا رفيقها الأمين، يشبع رغبتها في المعرفة ويأخذها إلى عوالم أخرى، حيث الفرح والتجدد، بعينين لا تعرفان سوى حب الجمال والعلم والثقافة .

الفصل الأخير

" سكون الليل "

" كانت تتنقل من كتاب إلى آخر، وكأنها في رحلة مستمرة بحثًا عن سكينة لا تجدها إلا بين السطور. في تلك اللحظات، لا شيء يشغل ذهنها سوى الكلمات التي تطوف في عقلها، ولا شيء يعادل طمأنينة قلبها إلا أن تجد نفسها في عالم الكتب"

قالت تقول في سرها ، وأصوات الليل تتناغم مع صوت الأذان:

"الله أكبر... الله أكبر... حينما يكون بين صفحات الكتاب وسكون الليل فقط طيفُ عينيك ."

كانت كلماتها تخرج بنبرة دافئة ، كأنها تستمد قوتها من سكون الليل وهدوء المكان.

قال لها "يامسك كيف يمكن للكلمات أن تأخذك بعيدًا عن كل شيء؟" أجابت، هكذا الكتاب فلو غاب لفقدنا خزائن الذاكرة واحترقنا شوقًا لمعانقة اللغة الأم لذلك لايمكن للإنسان وهو خلق الله أن يتناسى كلمات الله. "

كان الكتاب رفيقها الأمين في كل لحظة من حياتها.

"كلما غمرها الكتاب شعرت أنها تتنفس بعمق تعيش في عالم آخر لاشيء يعادل هذه اللحظات لاشيء يشبع روحها مثل هذا السكون."

كانت مسك تتأمل هذه اللحظات وتفكر في مدى أن تجد في الكتاب ذلك الرفيق الذي كانت تتمنى معه لو أن تلك اللحظات لاتنتهي أبدًا .

تلك الفتاة المزينة بتلك الظفيرة المصطحبة بعنفوان الأبوة والمدعمة بتوصيات من أم فاضلة ودعوات جد وجدة تثق بمستقبلٍ واعدٍ محملًا بلمسات البركة لتختصر برؤيتها أجمل القيم وأرقى المبادئ بجرأة الرزانة فتكون أمنية لكل أبوة وأمومة كثيرًا ما يُقال إن الآباء يأكلون الحصرم والآبناء يضرسون ولكن مع هذه الفتاة كان الحصرم عنبًا من حقول سُقيّت قيّما عليا ومبادئ إنسانية وطموحًا دون حدود أثاره الجانب الأيمن الذي رسمه غاردنر فنمى وكبر ليجتاح عالم الفلسفة والطفولة والآن أتيتِ لتسقيني من سلسبيل المعرفة والطمأنينة والآمان وتعيدي إلى ذاكرتي ماكان قد أُغتصب في أيام الطفولة ليتابع متسائلًا مدركًا الإجابة" فأي حكم يشفي معاناتي من ذلك السياف الذي اختبأ وراء مهنته بنقل المعرفة ليبث سموم حقده الاجتماعي والأسري في طفلٍ لم يرتكب إثمًا سوى أنه كان موجودًا في المكان البائس وابنًا وضلعًا من أبوة وأسرة لاتعرف سوى الحق أو أنني أكتفي بالقدر وماأقتص منهم وماعاد إليهم ونما داخل فلذات أكبادهم من أحقاد فمن زرع كرهًا لايمكن أن يحصد إلا شوك ماأقترفت يداه .

هكذا سرد حديثه مابين ماضٍ من ومضات الألم وحاضرٍ يعبق بالأمل معنونًا إياه" أتت وأيقظت طفولتي"متسائلًا مرة آخرى وهي على يقين أن ذلك لن يكون سؤاله الأخير:

هل الجريمة فقط قتلًا بالمعنى الحرفي يامسك ؟ القتل ليس بالضرورة أن يكون الجسد هو المعتاد فهناك قتل الروح الطموح الأمل الحب والكره ولكن أية جريمة أكثر قسوة من تلك التي تجتاح الطفولة يامسك " طفل حاولوا قتل طموحاته وشغفه وزرعوا فيه الكره الأول للمراحل الأولى من نضوجه" لماذا؟ تساؤلات كثيرة عما يجول في خاطره من تراكمات اتسمت بالمعاناة

أخذها حينها الصمت مليًا لترى في كلماته تلك وصف لأطواق الظلم القابعة على منافذ العدل دون رقيب فيا للألم عندما يتناسى الظلم واقع الحق ليعبث بطموحات الآخرين على أيدي أناس كرهت الإبداع عندما رأته بمقايس شخصية لاتمت لمهنة التعليم بأي صلة، أدركت حينها أن مثالية أفلاطون لم تكن عبثًا في اختيار المعلم الفاضل وأننا حقًا نحتاجها على مر العصورلتبقى طموحاتنا بخير، لتبتسم لتأملاته تلك التي لم تعرف السكون يومًا واصفًا ذلك:

فوضى تخلي فراغ ما كان يحتل جسدك ويدفع روحك للاستسلام فكما هناك لكل شيئ نهاية هناك بداية أيضًا قدرك ادراكك و إيمانك بان هناك متسع للمحاولة لتبدأ من جديد وبماأنك لاتمتلك قرار الموت لابد لك من خيار الحياة فأنت لست موسى ليشق الله لك البحر فاستمتع برحلة

البقاء.فالاستسلام من أخطر مراحل القناعة التي تملئ جسدك بالآمان والطمأنينة فلا تسمح لروتين القناعة ورتابتها بأن تفرض على روحك ذلك فلكي تشعر بالحياة عليك إشعال نار غضبك وتمردك ومواجهة فوضاها وتذوق ظلامها وظلمها وبردها وقسوتها والانتقام لسرقتها السلام وعدم القدرة على الأحلام.

تابع حديثه متسائلًا هل توافقيني يامسك الرأي فيما قلت؟ متابعًا حديثه دون أن يسمع منها الإجابة قائلًا لها أنا لاأؤمن كثيرًا بماقاله أوشو بأنه"من الجميل أن الحياة ليس لها هدف و نحن نتجول في العالم فقط من أجل الفرح والنعيم والسعادة والحزن والألم والبؤس أو يمكننا القول أن العيش بالحاضر هو الهدف " بل أؤمن أن للحياة هدف ولكن هذا الهدف نابع من رحم التناقضات المرتبطة بالواقع فأنت حي فيه ولكنك مقيد بظروف يفرضها الزمان والمكان وهدفك هو التحرر من هذا القيد لتشعر بالأمان مفتاح السعادة والطمأنينة ومايشعرك بالحزن والألم والبؤس هو امتثالك لهذا القيد وفي كلا الحالتين أنت تمتلك الحياة فالكمال لله فقط لأنه الوحيد من يمتلك

خاصية الخلود لذلك فأنت تمتلك الحياة، وسعيك المقتضب فيها للكمال بإحدى الجوانب التي يفرضها الواقع يعزز من سكينة روحك المرتبطة بعمق الإيمان وقربك من عبادة الله.

مختتمًا فلسفته تلك ببوح يغازل من خلاله ترانيم عشقه لها وكأنه أراد أن تطبق أجفانها على صدى نهاية حديثه عندما شرح معنى غيابها من نسائم عمره مشبهًا ذلك بطيف تائه يقوده دون أن يعرف كيف ولماذا؟ وكأنها تلك الوردة النقية التي تنشر عطر رحيقها كلما نسج المقال على أصابعه شباكه اللامعة فهي ليست مجرد فتاة تجذب القلوب كمعزوفة قديمة وتترك المنطق عاجزًا عن الشرح أمام أصداء مثاليتها بل هي هدية الرحمن التي لايمكن وصفها بالكلمات قائلًا لها:

"من رحم تلك التناقضات ورغم ظروف الحياة تأتيك النعم من الله دون إذن أوسؤال فيستفيق طفلًا نائمًا بداخلك ليركض نحو حلم وشغف بترته الأيام فيولد من جديد على يد إمرأة من نور وهمسات رضًا من الله "كطفلة أنتِ تحبو فوق ركام الغيم وعاطفة الدهشة لتكوني بكياني من أسخى عطايا الإله"

كنتِ، سيدة بنكهة النور، إحدى العطاءات التي وضعها الله في طريقي. أنتِ، ذلك النور الذي يضيء ظلمات الطريق ويبدد كل ما يعترضه من شكوك.

متى سنتزوج يا مسك؟ سألها، ممازحًا، ربما تغيرين رأيكِ إن طالت طموحاتكِ ، وقد يتبدل رأيي أنا أيضًا إن نفد صبري.

تبتسم مسك، ويعلو وجهها الخجل، فتجيب بصوتٍ هادئ لكن مليء بالإصرار: "بلى، سنتزوج، فقط أمهلني القليل. لم يتبقَّ لدينا الكثير من المحطات للوصول إلى محطة النجاح، والتي لا أظن أنها ستكون الأخيرة. بل ستكون بداية جديدة، رسمناها معًا بشغف أمنياتنا، بأسمى معاني الطموح وأعمق الابتهالات لغدٍ قد سبقنا به الزمن، كي لا يتركنا خلفه دون انتظار".

وبعد غفوة من الصمت، يرد قائلاً: "طلبت التمهل إذن فاستمتع بهدوء الانتظار فقد أبحرت في بحر المعرفة حتى غصت بها ولكنها مالت فعانقتها شوقًا الكلمات وأمطرت إعصارًا باسم لغة الطموح تمهل تمهل كي تستطيع تجاوز بركانها المتقد وانتظر انتظر كي لاتحترق .

ثم تتبسم مسك، فتقول له:
آيا أنت في الحقيقة لم أكن أبحث عن الحب بل كنت أنتظرك لألتقي بذلك الرجل الذي لن أكون معه مفتقدة لعفويتي وجنون أحلامي لن أفتقد صبره على لحظات قلقي ومزاجية أحزاني بل سأجده عقلًا يحتضن أفكاري وثقافة تفتح ذراعيها لو أعتصر الإبداع مخيلتي لن أفتقد معه مسك بل سيكون في روحي سلام ذاتي وذلك الآمان الذي آوي إليه كلما بعثرني الخوف مخطئًا ذلك ماأرادته مسك حبًا أشبه بدوام الربيع في عينيه وإن رافقته فصول العام وإنسانية فكر مبدع.

كان يسكن في نبض مسك ألف عام من العشق لطارق، كما كان يسكن فكرها الكثير من الأحلام، تلك الأحلام التي كان يشاركها بها في كل تفاصيلها. داعمًا إياها على الدوام، لم تكن وحدها في هذا النشاط الدؤوب، بل كانت تجده كظلٍ يفيء على كل خطواتها، على الرغم من تلك المسافات التي تباعد بينهما.

أجابها طارق بصوتٍ هادئ وكأنما يعبق في كلماتِه الأمان الذي لا ينتهي. "سأكون دومًا هنا مسك في كل حلم تحلقين به في فضاء لاأعرف أين ينتهي مداه، سأكون بجانبك دائمًا ، إياكِ والظن أن المسافات يمكن أن تباعد بيننا لأننا ورغم البعد لن نفترق."

أرادت أن يصف مقامها في الحب فارتبك بكبريائه عندما عانق فيها جميع المقامات وعندما أراد أن يُنصف التعبير كتب لها قائلًا:
كالوطن أنتِ.

بقداسة الوله الأبهى وسيمفونية الغزل الأنقى وانتصار العشق الأسمى عمرًا على ليلة من الرهان الأعمى، لم يكن حوار هذا المساء مألوفًا كالمعتاد بطابع رسمي أنيق يتجاذب أطراف الحديث فيه فتاة ذات أجنحة فكرية تحلق بفلسفة المعرفة فوق صيحات العلم قاصدة منحى الثقافة اللامتناهي وشاب بجدورياضية ونسغ عبقري رقراق الفكر بليغ الكلمات مدثرًا بثقافة الأيام.
أرادت مسك حينها أن تلتمس مدى حبه لها أهي مرآة روحه حقًا أم أنها ذاك الاختيار الاكثرأمانًا لشرقية رجل تسكن فضاء عالمه الاجتماعي دون قيود، في تلك المكالمة قالت له هل لي بسؤال أضحى يُطوق آفاق فكري كما

تُطوق السلاسل يدي سجين، ماذا يعني لك الحب ياسيدي؟ في الحقيقة لم تنتظر ردًا يلخص إحدى رسائل كافكا لميلينا عندما بعث لها ذات يوم يشكو الحب قائلًا " الجو كئيب في براغ أشعر بقلبي يثقل بين أضلاعي فلم أستلم منك رسالة بعد، أعرف أنه مازال باكرًا أن أستلم رسالة، لكن اشرحي ذلك لقلبي" فهي تعرف مدى اتزان فكره حتى وإن اشتدت به عواصف الشعور ولكنها وددت حينها إجابة تحمل كل اليقين لشعوريرسو خالي الوفاق من أي تعبير على ميناء اللغة من دونه، كان حينها يكفي أن يقول لها "أنتِ" ليختصربه كبرياء يسجن الحب عنوة خلف نرجسية الفكر ويطلق عناء تلك الأيام مستسلمًا للصمت بثرثرات الندم ومختبئًا خلف رسائل الاطمئنان و تحايا السلام.

في غمرات السكون التي كانت تصافح لحظات الانتظار في ترقب، لاشك أنها قد توقعت نصف الإجابة لتتوه على أسوار النصف الآخر منها مابين سؤال وجواب ، بصوت تلك الابتسامة التي يزينها الخجل أجاب متسائلًا

العقلانية هبة أم نعمة؟ لكن لاشيء يشفيك من الألم سوى الحب وهذا مايعطي المبرر لفقدانك حرية الاختيار في زخم الحياة المرير"يُقال أن أجمل الأضواء هي تلك التي لاتستطيع رؤيتها" وأنا أقول إن أجمل الأضواء هي تلك التي يعكسها شخص بداخلك بطعم الأمل فيجتاح الظلام المنقوص بداخل روحك المسروقة لتمتلأ مرة أخرى بلذة الحياة في ظل الاختيارات العقلانية.

"ما بين الفلسفة والتناقض"

قاطعته حينها قائلة، بصوتٍ هادئ، لابأس ولكن؟
"معذرةً، سيدي، فالوقت قد تأخر. ولكن، لن تمضي هذه الليلة بسلام دون أن أعرف، أية معزوفة في الحب كنت تقصد، بتلك الأمل الذي أوثقته بظلال الاختيارات العقلانية؟
بفلسفة المنطق التي بها يختار الحب، ولكن دون أن يتواضع لارتباك نهاره من دونه؟"

أجابها وهو يحاول تهدئة الموقف، مدركًا أنه وقع في بحرٍ عميق من التناقضات:
"أعلم أن حديثي قد أوقعني في التناقض، ولكن ماقصدته أن العقلانية في الحب لا تعني غيابه. الحب، كما تعلمين، إنه يشبه الأمل الذي يبقى على الرغم من كل الفوضى التي قد تلتف حوله. قد لاأستطيع أن أشرح لكِ كل شيء الآن، لكنني أعدكِ بأنني سأوضح ذلك غدًا."

خلال تلك اللحظات، كان يخفي ابتسامته بين لذة الانتصار وعواقب الحرب التي أثار نيرانيها دون قصد. محاولًا تأجيل ذلك الشرح ليومٍ آخر، وكأنما أراد أن تشرق شمس الصباح ليكون نهاية مقال تلك الليلة.

"بين العقلانية وأسرار الحب"

قالت له، وعينيها تحملان مزيجًا من الحب والكبرياء:
"لماذا كل هذا يا سيدي؟ كان كافيًا أن تبوح للحب بأسراره وللعقل بحكمته، دون أن تعبر بقافية كبريائك لتبرأ الحب من ومضات الجنون، بتلك السلطة التي تمنحها لقوانين العقلانية.
إذن "فلتمنحني" قليلًا من الوقت، فهناك الكثير في هذا القليل الآتي لأقوله."

ثم تابعت حديثها بصوتٍ هادئ، لكنه كان يحمل في طياته بُعدًا من الجدية:
"أحترم تلك العقلانية التي طالما غلفت بها ابتسامتك، القابعة خلف رعشات نبضك المتخفي. وأعلم يقينًا أن ذلك الصمت المطبق سيكتب لي رسائل بريدية، يحكي فيها عما يدور بين فكرك وشرايين قلبك"

وفي فجر ذلك اليوم، أغلقت الهاتف لتتناول قطعة من الشوكولاتة الداكنة، بينما عقدت جلسة استثنائية مع فنجان قهوتها المتحالف مع الشمس. كانت الشمس ترمي بأشعتها الذهبية، لتنشر الدفء بين جنبات ذلك السكون الذي عبث صقيعه بروائع فكر غاردنر.

لكن تلك التساؤلات التي ارتبكت في ذهنها كانت لا تزال تنتظر جوابًا، كما لو أن الحروف نفسها سئمت من الانتظار.

تساؤلاتها تلك التي بدت لها فارغة حتى من احتمالية المنطق، فهل كان يقصد أن النصف الايسر من الدماغ يعيش بمنطقية الأرقام فقط وأن للحب في ذاك النصف طقوسه اللامفهومة أم أن على النصف الأيمن أن يعقد هدنة سلام معه و يعزف لغته الأدبية وفق منظوره في الحب.

كم أسرها إبداعك غاردنر عندما أيقنت أن ذاك العبقري نصفها الآخر ولكنه وضع أقلامها على تساؤلات اللانهاية عندما خاطب الحب بمسلمات الأرقام.

نعم لم يكن ذاك ما عناه غاردنر وليس هذا ماكان قاصدًا له ولكنه سر الحكاية عند مسك فكرًا استوطن رائحة الكتب عمرًا وعشق فتاة شرقية ترجو الثواب لا العقاب مابين عيناه وعبقرية

فمازالت تؤمن بالحب لأجل الحب فقط كي تمتلك الحياة وبتقاسم الفكركي تشعر بلذة الحياة لأنك لن تكون أنت إلا عندما يكون خيارك هو الحالتين معًا، تمامًا كخيارٍ من هو هائم مابين السنابل والورد واصفًا حالة أمانيه : ماذا لو أمطرت السماء وردًا

ودامت السنابل أعوامًا لتطعم جميع فقراء هذا العالم هنا فقط تشعر أنك قد عشت الحياة مرتين هنا فقط تدرك كم عمرًا يمتلك ذلك الحب، سلام عميق لايدركه سوى من عشق روح الفكر وراح يُلملم أزهاهير ابتساماته عابرًا اللا وجود باليقين

نعم هو يعرفها جيدًا ولايعترف باللاكتفاء من الحديث معها فأي شعور أخذه مليًا عبر غفوات من الصمت حتى يطرح عليها سؤالًا كهذا

كم مرة أنصفكِ القدر يامسك ؟؟ مختصرًا إجابتها بماكتبه لها في اليوم التالي :
ضحكت ثم بكت ثم قست فندمت ثم قُتلت فظُلمت وذاتها ظلمت ثم جلست تودع أيامًا دون احتضان الدقائق ببرودة وردة بالجليد وسبات نجوم متناسية تقلبات القمر فوق الغيوم مؤمنة بدوام إنصاف القدر لها عندما يكون الله بجانبها.

أما أنا، فما كنت أدري شيئًا عن نعم القدر حتى جاءت، مقتحمةً ركود الثواني، لتدفئ شتائي بعد خريف طويلٍ وبارد.

في الحقيقة، لا أعرف أي مجهول سوف يحتضن حلمها وطموحها، وجموع إبداعٍ لا يعترف بالإكتفاء. هل يا ترى أصبح سباق المعرفة بسيطًا، محدودًا بحدود خيالاتها، أم أن الصدق والأمل، وتيقن المسؤولية، قد ذهبوا بها مع الإبداع بعيدًا؟

ولكنني أثق، يقينًا، أن أحلامها ستغزل وتصوغ نجاحات ذهبية.

فالفوضى التي تخلقها الحاجة داخلنا هي السبب الرئيس لاجتياح ظلام الغد، والاستمتاع برحلة الحياة للوصول إلى الهدف المنشود من تلك الحاجة. ولكن عليكِ أن تدركِ جيدًا، يا مسك، أن الحياة ليست

فقط بنبل العاطفة ورقة الشعور. فلا بد من كسر قيود الحاجة، والتمرد على الواقع لصناعة الأحلام، كي يُضاف لتلك الرحلة شغف النجاة.

في زخم الضجيج، وانعدام الراحة، وظلامٍ لا يملؤه سوى القلق، تهرب بروحك، بشوقٍ يعبئه حلم يقظة، إلى من ملكها، وامتلكها، وأسعدها. إلى النصف الآخر، حبًا وفكرًا، لتكون مطمئنة إلى الأبد.

كالوطن أنتِ.. أليس الوطن ياحبيبتي هو المكان الذي يستطيع فيه الإنسان الشفاء من الخوف والكره من البعد والفقدان من الألم والخذلان هو جميع مقامات الحب التي حملها قلبكِ وخطتها حروفكِ يامسك هو الفضاء الذي يعانق شغفك ويشاركك إبداعك فتسموان معًا بذات فكر الهوية دون امتنان هو المكان الحقيقي لإنسانية إنسان.

لقد كان طارق يرى مسك بمنظار مختلف لايخضع للمقارنة وكما كانت هي تراه بذات المنظار فالحكاية ليست فقط مزيجًا من الحب اللامشروط والجنون الذي يخضع للطف والرقي في المعاملة وألوان الحنان الأنقى والأشبه بهمسات والدها والثقة التي لايشوبها أي عناء بل كانت حكاية فكرأيضًا يتقاسم فيه الإبداع شاب وفتاة ليكمل أحدهما ماتوقف عنده الآخر بحواراتٍ تقطف أزهارها من حقول الثقافة حاملًا كلاهما من كل بستان زهرة.

أيقونة الروح

وعدتك أن أكتب، وها أنا أكتب، رغم النور الخافت الذي يخيم في أعماقي، إلا أن روحي تُضاء كلما غازلت بعبقريتك منافذ الثقافة عبر أقلام البوح التي تترقب على أوراق منضدتي. في تلك اللحظات، تُكمل نبضات قلبي النصف الآخر من الرواية، لنتلاقى بالفكر، ونستودع بالحب، ونبحر في سلام خلف عبق الإيمان.

مشهدٌ عميق، حيث يُعانق الفكر بأجنحته النورانية سماء الحب، حاملاً مفاتيح تلك الرموز المعلقة على أغلفة الكتب منذ زمن طويل، لتناظر الحياة بروح المثالية، لا بعنائها.

د. لينا راضي صبح